النثر في صدر الإسلام وبني أمية

إعداد

أ.د غريب محمد علي

د. فاطمة الزهراء فوزي

الفرقة الثانية قسم اللغة العربية

العام الدراسي ٢٠٢٢/ ٢٠٢٣م

مهاد

ـ حالة النثر قبل صدر الإسلام:

عرف العصر الجاهلي ألوانا متعددة من النثر فلقد كان للجاهليين نثر يتكلمون به في شئون حياتهم وتصريف أمورهم وهذا ما يُسمى بالنثر العادي وكان لهم نثر فنى مصبوب في قالب أدبى وهو الذى يرتفع فيه أصحاب إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة وهو الذى يثير المشاعر ويحرك العواطف والوجدان ويقصد به صاحبة إلى التأثير في نفوس السامعين والذى يحتفل فيه من أل ذلك بالصياغة وجمال الأداء وهو ما يعرف عند النقاد بالنثر الفني وقد وجد هذا النوع في العصر الجاهلي وله ألوان متعددة أهمها ما يأتي:

1 ـ القصص:

هي التي روت أخبار الجاهليين وأيامهم ومفاخرهم وقد سجلوا في هذا القصص انتصاراتهم كما دونوا ما منيت به القبائل من هزائم وأخذوا يقصون تلك الأيام إلى أن سجلت في العصرين الأموي والعباسي.

والحق أن ليس بين أيدينا شيء من أصول هذه القصص غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي قد دونوا ما انتهى إليهم منه وطبيعي أن تتغير وتتحرف أصوله في أثناء هذه الرحلة الطويلة التي ١٣قطعتها من العصر الجاهلي إلى القرن الثاني الهجري وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم ومن أهم ما قصَّه الجاهليون تلك السِير والقصص التي تحدثت عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقهم أو خلفهم وكانت معظم هذه القصص مخالفة للتاريخ الحقيقى لهؤلاء الملوك ومثلما قصوا عن ملوكهم فقد قصوا عن ملوك الأمم المجاورة على نحو ما كان النضر بن الحارث يقص عن ملوك فارس وقصوا أيضا عن كهانهم

وشعرائهم وساداتهم ورحلاتهم وأسفارهم وقد استمدت كتب التاريخ والادب من هذا النوع مادة خصبة من الأخبار ويدخل في هذه الصورة النثرية خرافاتهم وأساطيرهم عن الحيوان وقد كان لهم قصص كثير في هذا الجانب ومثال ذلك قصة الحية والفأس وكما قصوا عن الحيوان فقد قصّوا عن العفاريت والجن والمردة والشياطين والحق أن هذه القصص لم تصلنا مدونه إلا متأخرا ومن ثم ففيها نحل كثير ورغم ذلك فهى ظل للحياة الجاهلية مصورة لها لكنها ليست دقيقة كل الدقة وليست ناضجة فنيا ومما يجب ذكره في النهاية أنه لا يجب أن نعلق أهمية تاريخية أو أدبية على هذا القصص فإن الرواة حرفوا فيه كثيرا قبل أن يأخذ شكله النهائي.

٢ـ الأمثال:

يقول الميدانى نقلا عن المبرد المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول ويقول المبرد أيضا: إنه قول سائر يشبه مضربه بمورده وثمة تعريفات متعددة للعلماء والنقاد والباحثين منها المثل؛ هو عبارة قصيرة محكمة البناء جيده السبك متينة الرصف تتركز فيها الإشارة إلى الحادثة أو قصة وتقال في حوادث مشابهة للحوادث الأصلية التي تشير إليها وتحكى على صورتها الأصلية التي رويت عليها دون تغيير أو تبديل ومنها قول بعضهم

إن المثل جملة رصينه جمعت فيها تجارب الامة واجتمع فيها إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه، ومنها قولهم: هو قول موجز يلخص تجربة أو موقفًا.

ويمتاز المثل بخلوه من التعقيد كما يتميز بعدم الإسهاب وأنه يورد بصورة محكمة مجملة وله مضرب ومورد والمضرب هو الحالة التي تشبه المناسبه التي قيل فيها والمورد هو المناسبة١٥.

وإذا كان للجاهليين قصص قد لحقها كثير من التغيير والتحريف وهى لا تعطى صورة دقيقة للنثر الجاهلي فإن أمثالهم كانت أكثر دقة وأقل تغييرا وتبديلا لإيجازها وقصرها وكثرة استعمالها وقد قام جماعة من العلماء بتدوين هذه الأمثال ثم توالى بعد ذلك من اهتم بها اهتماما بالغًا فألف كتاب جمهرة الأمثال وأعقبه الميدانى الذى يعد كتابه مجمع الأمثال أضخم موسوعة للأمثال العربية وممن ضرب بسهم في هذا الميدان المفضل بن سلمه في كتابه الفاخر وقدم لنا المبرد في كتابه الكامل مجموعة ضخمة من الأمثال كما قدم ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد بابا مستقلا عن الأمثال العربية وكان لبعض هؤلاء العلماء خاصة الميدانى والضبى وابن سلمة إشارات تدل على جاهلية المثل كأن يسوقون مع المثل قصة جاهلية تفسيره أو أن يساق المثل في أثناء قصة جاهلية وكانوا ينسبون أحيانا المثل إلى الجاهليين مثل الأمثال التي نسبت إلى لقمان عاد الذى ضرب به المثل في طول العمر فقيل طال الأبد على لبد ١٦.

وممن اشتهر بالأمثال في العصر الجاهلي أكثم بن صيفى ولبيد ابن ربيعه وهرم بن قطبة ومن الأمثال التي تنسب إلى أكثم قوله الحر حر وإن مسه الضر ورب قول أنفذ من صول ولا تطمع في كل ما تسمع وكان أكثر الأمثال الجاهلية لا يعرف قائلها لأنها قيلت من أناس غير معروفين من عامة القبائل والعشائر وتتميز هذه الأمثال في معظمها بالإيجاز وتوازن الكلمات والميل إلى السجع وشذوذ بعضها عن القاعدة النحوية مثل أعط القوس باريها بتسكين الياء في باريها والقياس أن تفتح ومن الأمثال العربية المشهورة استنوق الجمل تموت الحرة ولا تأكل بثدييها كالمستجير من الرمضاء بالنار حبلك على غاربك رجع بخفى حنين عند جهينه الخبر اليقين مواعيده مواعيد عرقوب قطعت جهيزة قول كل خطيب وافق شن طبقة جنت على نفسها براقش أو على أهلها براقش

وتحس في أمثال الجاهلية الميل إلى التنعيم الموسيقى وجمال الصياغة والاعتماد على الاخيلة احيانا لتجسيم المعنى المراد

٣ـ الخطابة:

كان للخطابة في العصر الجاهلي أمر عظيم وشأن جليل وكان أكثر الفنون النثرية ازدهارا والحق أنها فن أصيل عند العرب ١٧، أصالة الفصاحة والبيان عندهم وربما يرجع ذلك الأزدهار إلى عدة عوامل أهمه:

١ـ السليقة العربية المعروفه بالفصاحة والبلاغة والبيان فلقد فطر الإنسان العربى على اللسن والفصاح.

٢ـ الحرية المكفولة لهم إذ لم ينقصهم شىء منها فالخطيب يصول ويجول بلا خوف أو وجل.

٣ـ كثرة الحروب والإغارات والمحافل العامة والأسواق الجامعه فلقد كانت الخطابة سلاحا مهما فى المنازعات والخصومات والحروب والمجالس والأسواق.

٤ـ المواسم الدينية والاجتماعية وقد استخدم العرب الخطابة فى عدة أغراض منها المنافرات (تفاخر بالأحساب والأنساب وتحكيم بينهم فيها والمفاخرات واستخدمت فى الحث على القتال وبث الحفيظة فى النفوس والحمية فى القلوب وكما كان الخطيب يدعو إلى الحرب والقتال والنزال فقد كان يدعو إلى الصلح والإصلاح والسلام، واستخدمت الخطابة أيضا فى المناسبات الاجتماعية كالوفادة على الملوك والأمراء وفى النصح والإرشاد والزواج والمصاهرة ١٨.

وقد اشتهر من الخطباء فى العصر الجاهلى عدد كثير منهم **قس بن ساعدة وزهير بن جناب** وأكثرهم **بن صيفى وقيس بن زهير وقيس بن عاصم وهانىء بن**

قبيصة وذو الإصبع العدوانى وحنظله ابن ضرار وعامر بن الظرب وهرم بن قطبة ولبيد بن ربيعة وغيرهم **ولقس بن ساعدة** خطبة مشهورة يذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيها: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت.

والحق أن كثرة خطبائهم تدل على ازدهار الخطابة وتبين عن مكانتها السامقة كما تدل على اهتمام الجاهليين بها وربما لا يجابنا الصواب إذا قلنا إن الخطيب قد احتمل منزلة رفيعة فى ذلك العصر للحاجة إليه فى كل موقف بل ربما سمت مكانته على مكانة الشاعر حينما اتخذ الشعراء الشعر مكسبا ومغنما وهذا ما يشير إليه الجاحظ بقولة ونقلا عن عمرو بن العلاء كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب على فرسانم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا ١٩، إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر والحق انه لا تكاد تخلو قبيلة او عشيرة من الخطباء وقد كان للخطابة تقاليد ورسوم ونظم تعارف عليها الخطباء منها أن يخطب الخطيب وهو على راحلته أو على نشز عال أو على كثيب فى السوق أو الجمع وكان يلتاث بالعمامة ويعتجر بها ويمسك بالعصا والقسى ويلتحف بالرداء .

ولا بد أن تتوافر فى الخطيب عدة صفات أهمها أن يكون ثابت القلب رابط الجأش حاضر البديهة قليل التلفت كثير الريق جهور الصوت قويا وكانوا يعيبون على الخطيب كثرة التنحنح والارتعاش والتعثر والحصر والعي ويذمون من يمس ذقنه أو شاربة وكان الخطباء يعنون بتوجيد كلامهم فيصوغون فيه السجع تارة ويمزجونه بالأخيلة تارة أخرى ويهتمون بوضوح الدليل والبرهان كما يهتمون بقوة اللفظ والبيان

ونصاعة الأسلوب وفصاحة الكلام ومن ثم جاءت خطبهم قوية متينه متسمه بالدقة والإحكام والحق أن الخطابة الجاهلية قد عبرت عن حياة الجاهليين وأغراضهم أصدق تعبير واتسعت لكل ما كانت تتسع له هذه الحياة من احداث وظواهر ٢٠.

ـ سجع الكهان:

وجدت طائفة عند العرب فى العصر الجاهلى تدعى التنبؤ ومعرفة المغيبات وأنها تنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن التى تسترق لها السمع وتدعى هذه الطائفة الاطلاع على الاسرار وما سيحدث فى غد وتزعم ان الجن هى التى تخبرهم بالأشياء قبل وقوعها وأن أرواحهم قد صفت حتى صارت مع أرواح الجن وقد سميت هذه الطائفة بالكهنه وقد قيل إن الكاهنه تاتى من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه وان هذا الشيطان الرئى يسترق السمع ويلقية على ألسنه الكهان وكان للكاهن عند الجاهليين مكان' عليه لا تقل عن مكانة الملك فلقد تمتع الكاهن فى القبيلة بمكانه الرئيس وصفاته فهو الذى يشير على القوم ناصحا فى حربهم وسلمهم بعد الاستطلاع على الغيب عن طريق رئيه او تابعة ولا يقتصر وظيفة الكاهن على التنبؤ واستطلاع الغيب بل كان طبيبا لقبيلته وربما قصدته القبائل الأخرى ومن الكهنه من ادعى لنفسه الألوهية أو النبوه وقد عرف من الكهنه عدد غير قليل منهم على سبيل المثال شق وسطيح وسواد بن قارب الدوسى وعزى سلمه سلمه بن أبى حية والأسود العنسى وغيرهم ومن النساء كاهنة **بني رئام والشعثاء والزرقاء** ٢١، وكانت أقوالهم دائمًا مسجوعه ومن ذلك ما يروى عن الزبراء كاهنة بني رئام التى أنذرتهم بغازة عليهم واللوح الغافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق ان شجر الوادى ليأدو ختلا ويحرق انيابا عصلا وان صخر الطود لينذر ثكلا لا تجدون عنه معلا ومن ذلك ايضا قول الكاهن الخزاعى والقمر الباهر

والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم أميه إلى المآثر أول منه وآخر ويلاحظ على كلام الكهان انه كان مسجوعا تماما فهم لا يتكلمون الا بالسجع وكانوا يتعمدون الإتيان بالألفاظ الغامضة المعماة ويستخدمون الرمز فىٌ والهم كما يلاحظ ايضا كثرة القسم بالكواكب والنجوم وظواهر الطبيعة ومظاهرها مما يدل على اعتقادهم ان فى هذه الاشياء ارواحا خفية تساعدهم على عملهم وكانت كلماتهم غير واضحه المعنى أحيانا حتى يجعلوا السامع يتأولها كما يشاء حسب ظروغه وفهمه واحواله وكانوا يتعمدون الإغراب فى الفاظهم للايهام والتأثير فى نفوس السامعين٢٢

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع فى كلامه الا ما جاء عفو الخاطر حتى لا يشتبه كلامه بكلام الكهان بل كان يكره ذلك وينهى عنه وينكر على من يستخدمه فى كلامه ولهذا يروى انه صلى الله عليه وسلم قضى فى الجنين يقتل فى بطن امه بغرة عبد او وليده فقال الذى قضى عليه كيف اغرم من لا اكل ولا شرب ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل فقال رسول الله عليه وسلم انما هذا من اخوان الكهان اى ان قولك مثل قول الكهان باطل ومرفوض.

ـ الوصايا :

الوصية نصيحه يوجهها إنسان إلى عزيز لديه وهى ناجمة عن حكمة وتجربة للتوجيه والنصح والإرشاد أنها لون نثرى يوجه إلى الأهل والولد والاقارب والخلان والاحباب وقد عرف العصر الجاهلى هذا اللون من النثر والحق ان الوصايا الجاهليه تتسم بتناسب الجمل وروعه الاسلوب ورقته ودقته ويشيع فيها الحكمه والصدق وتنبىء عن فكر ثاقب وبعد نظر وفطنه وإخلاص وقد وصل إلينا مجموعه من الوصايا الجاهلية القيمه مثل الوصيه امامه بنت الحارث الشيبانى لابنتها عند الزفاف ومثل وصية زهير بن جناب الذى أوصى بنيه قائلا: يا بنى إنى قد كبرت سنى

وأحكمتنى التجارب والأمور فاحفظوا ما اقول وعوه اياكم والخور٢٣، عند المصائب والتواكل عند النوائب فان ذلك داعيه للغم وشماتة العدو ومثل وصية ذى الأصبع لابنه اسيد التى يقول فيها يا بنى إن اباك قد فنى وهو حى وعاش حتى سئم العيش وإنى موصيك بما ان حفظته بلغت فى قومك ما بلغت الن جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم بارهم يكرمك بارهم ويكبر على مودتك صغارهم واسمح بما لك واعزز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك واسرع النهضه فى الصريخ فان لك أجلا لا يعدوك وصن وجهك عن مسألة احد فبذلك يتم سؤددك ٢٤.

القرآن الكريم

ـ إعجاز اسلوبه وبلاغته:

القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه هدى للمتقين وقد اتفق العلماء على انه هو كلام الله القديم الازلى المعجز المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى بواسطة الأمين جبريل عليه السلام المكتوب فى المصاحف المنقول الينا بالتواتر المتعبد بتلاوته المبدوء بسورة الفاتحه والمختتم بسورة الناس وهو مملوء بالحم البالغة والامثال الجامعه المبهر بأسلوبه ونسق عباراته انه المعجز الخالدة الباقيه ما دامت السموات والارض إنه الكتاب الذى بهر العرب وأثار دهشتهم رغم فصاحتهم وبلاغتهم ولقد نزل القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم منجما حسب الحوادث وقد جاء قمة فى الفصاحه وذروة فى البلاغة لا يجارى ولا يبارى ولا يدانيه كلام فى بلاغته ولما عجز العرب عن محاكاة اسلوبه ادعوا مرة ان النبى شاعر وادعوا انه ساحر مره اخرى وادعوا انه كاهن مرة ثالثة وادعوا أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين٢٥.

وليس ثمة شك فى أن القرآن الكريم معجز إذ لم يستطع العرب وهم اساطين البلاغة وارباب الفصاحه ان يأتوا ولو بآيه من مثله رغم انه مكون من حروف لغتهم ومن جنس ما برعوا فيه وهو البلاغه ولذا فقد تحداهم الله عز وجل ان يأتوا بمثله فقال قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو ان بعضهم لبعض ظهيرا بل لقد تحداهم ان ياتوا بسورة من مثله او بآيه فما استطاع القوم ذلك على الاطلاق لقد جاء القرآن ساميا فى كلامه معجزا بأسلوبه ورأى العلماء ان هناك وجوها كثيره متعدده لذلك الإعجاز ولعل اهم وجوه هذا الاعجاز فى القرآن ما يأتي:

ـ الصرفة:

والمقصود بالصرفة ان الله عز وجل قد صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقا للعادة ٢٦ ، وقد وقف العلماء الأجلاء مناقشين هذا الرأى مبرهنين على بطلانه بأدلة عديدة مقنعه وعلى رأسهم القاضى أبو بكر الباقلانى والجرجانى والسيوطى ومما ساقوه على بطلان هذا الرأى ما يأتي:

ـ لو كان العرب قد صرفوا عن معارضته لم يكن من قبلهم من العرب مصروفين عنه لأنهم لم يتحدوا به فكان من الجائز أن نبعثر فى كلام العرب الأقدمين على ما يشبه القرآن .

ـ لو كانت المعارضة ممكنه وإنما المنع منها الصرفه لم يكن الكلام معجزا وإنما يكون المنع هو المعجز.

ـ لو كان عجز العرب عن المعارضه بالصرفه لما استعظموا بلاغة القرآن وتعجبوا من حسن فصاحته.

ـ لو كانت الصرفة هى سبب الإعجاز لكان القرآن مثل غيره من الكلام يمكن أن يأتى البلغاء بمثله فيما بعد ومن ثم فإن هذا الرأى القائل بإعجاز القرآن بالصرافه باطل٢٧.

ـ الإخبار بالغيب:

رأى البعض أن وجه الإعجاز فى القرآن ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع وأتت تلك المغيبات وفقا لما وصفها القرآن الكريم وذلك مثل قول الله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون ، وقوله تعالى: (الم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد)، وقوله تعالى : (هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين له ولو كره المشركون)، وقوله عز وجل: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواب) ٢٨.

وممن قال بهذا الرأي الرمانى والباقلانى لان ذلك الوجه عند الباقلانى مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه وإن صدق الإخبار عن الغيوب معجزة الإخبار عن الأمور الماضية بأنباء صادقة.

لقد أخبر القرآن الكريم عن أمور حدثت فى التاريخ القديم وتحدث عن قصص الاولين وسير المتقدمين رغم ما هو معلوم من حال النبى انه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين واقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم .

ولقد أنبا القرآن الكريم عن أخبار القرون السالفة والأمم البائده والشرائع الدائرة مما لا سبيل إليه إلا بطريق التعلم والمدارسه لقد أتى القرآن الكريم بجمله ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله ادم عليه السلام إلى

حين مبعثه صلى الله عليه وسلم رغم انه لم يجلس إلى حمله الاخبار ورواه السير ولذلك يقول سبحانه وتعالى مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم وما نت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون وقوله عز وجل تلك من أنباء٢٩ الغيب نوحيه اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل وقوله سبحانه وتعالى ذلك من انباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون .

ـ الخلو من التناقض:

ليس فى القرآن الكريم تناقض ولا اختلاف فى قضية أو أمر ولذلك يقول عز وجل: أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثير ولذلك صح انه من عند الله سبحانه وتعالى.

ـ الإعجاز العلمي:

وهذا وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ففى القرآن إشارات علميه دقيقة وقد جاء العلم الحديث يثبت صدقا وإن لم تحتج إلى ذلك فالله عز وجل صادق فى كل إشارة وليس بين ما يذكره القرآن من نواح علميه ونظريات العلم الحديث اى تعارض وكل هذه الإشارات سابقة على ما كشف عنه العلم الحديث بمئات السنين وصدق الله عز وجل حيث يقول: (سنريهم آياتنا فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) ومن تلك المعجزات العلميه حديث القرآن عن خلق الكون ووحدته ونشأته٣٠، وعن الذرة وطبقات الارض ونقص الاكسجين كلما صعدنا إلى أعلى وعن خلق الانسان والاطوار التى يمر بها الجنين وعن التلقيح بواسطة الرياح واختلاف بصمات الإنسان وخلق الجبال والسماء وما فيها من نجوم وكواكب وعن الكائنات والنباتات والمخلوقات المتعددة ويكفى أن ترجع

إلـى كتـاب الله يتجلـى فـى عصـر العلـم لمؤلفـه جـون كلـوفر مونسًـا وكتـاب عقائـد المفكرين فـى القرن العشـرين للأسـتاذ عبـاس العقـاد لتـرى شـيئا مـن تلـك المعجـزات العلمية التى تحدث عنها القرآن الكريم ولكن يجب ان نتناول ذلك بحذر لان العلم لم يصل إلى مرحلة اليقين فقد تتغير النظريات العلمية لأنها ليست ثابته النسق والنظم والأسلوب والبلاغة والإعجاز الأدبي.

يرى كثير من العلماء أن إعجاز القرآن يكمن فى صميم نسقه وتحذير ألفاظه وحسن مقاطعه وبديع نظمه وعجيب تأليفه وتركيب عباراته والملاءمه بين ألفاظه ومعانيه والحكم المنبثة فيه وإلى التناسب فى البلاغة ومطابقة هذا النظام لجميع مقتضيات الحال بالإضافة إلى جلال الغرض وصفاء الحكمه وانطباق المثل وسلامة تأليفه عن الاضطراب وممن أشار إلى ذلك القاضى عياض إذ يقول إن إعجاز القرآن يعود إلى حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب٣١ .

وذكر أن إعجاز القرآن يعود أيضا إلى صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب العرب ومناهج نظمها ونثرها وممن دافع عن هذا الوجه من الإعجاز الباقلانى وحازم القرطاجنى والرازى والجرجانى وقد ذكر الجرجانى أنه لا ينبغى أن نبحث عن إعجاز القرآن فى الألفاظ المفردة لأن الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا ولا يكون الإعجاز فى تركيب الحركات والسكنات مثلما نجد فى الشعر وليس فى الاستخدام النحوى وإنما مرد الإعجاز فى رأيه إلى النظم والتأليف ودقائق هذا التأليف وأسرار الترابط بين المفردات والعلاقات بينها والحق أن نظر القرآن ليس له مثال يحتذى ولا أسلوب يقتدى إنه أسلوب عجيب خال من الجميع العيوب وهذا الوجه من الإعجاز ثابت لجميع آياته وسوره وفى كل موضع منه قدر تحد ومن أجل ذلك كله لا يمكن أن يكون القرآن الكريم كلام بشر وهيهات لبشر أن

يأتى بمثله لأن أسلوبه كله معجز لقد بهر العرب أمامه وحاروا واندهشوا ولذلك لما سمع الوليد ابن المغيرة قول الله عز وجل: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)٣٢، قال: الله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه وما هو بقول هذا بشر ولما سمع أعرابى رجلا يقرأ قوله عز وجل فاصدع بما تؤمر سجد فسئل لم فعلت ذلك ؟ قال سجدت لفصاحته وحينما سمع إعرابى قوله سبحانه وتعالى فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام ولعل من أبرز سمات أسلوب القرآن بالإضافه إلى ما سبق أنه يثير الوجدان والعقل معا إثارة قةيه ويحرك المشاعر ويوجه السلوك فهو لا يعتمد على التفكير فقط بل يعتمد أيضا على الوجدان وأنه يتميز أيضا بدقة الإشارة ولطف العبارة وروعة الإيجاز وجمال عرض المعنى بأقل ما يكون من الألفاظ والعبارات وأن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة وفصولا جمه إنه يتسم بترابط الكلام والتئام السرد وحسن الإيقاع وتناسب الأجزاء وتلائم العبارات وروعة الانتقال من معنى إلى معنى ومن حالة على حالة مع ثرة التنوع فى الأساليب حسب تنوع الأغراض والمشاهد ومقتضيات الأحوال وتنوع أدوات التصوير ودقة اختبارها من تشبيه واستعارة وكناية ومن حركة ولون وحوار وجرس لمات واحتباك ودقة إشارة وحسن إيقاع وروعة انتقال٣٣.

لقد جاء أسلوب القرآن معبر عن واقع الدعوة الإسلامية ومراحلها المختلفة والموضوعات المتنوعة التى تحدث عنها ففيه أسلوب الحوار والإقناع والمناظره والمحاججة وفيه الأسلوب القصصى وفيه ضرب الأمثال وفيه الأسلوب المعبر عن الحقائق العلميه والتشريعات والجهاد والمعاملات وما يتناسب مع الحاله الإنسانية التى يراد تصويرها إنه أسلوب يتسم بالتنسيق فى تأليف العبارات بانتقاء الألفاظ

المناسبة ثم نظمها فى نسق خاص بحيث ينشأ من ذلك إيقاع موسيقى فريد بذاته منسجم مع سابقه ولاحقه من أجل ذلك كله يستحيل أن يكون القرآن الكريم من كلام النبى صلى الله عليه وسلم فما كان لبشر أن يأتى بمثل هذا المستوى الرفيع من الكلام الذى يخرج عن طوق البشر ولذا يقول الباقلانى إن القرآن بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغه إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ويشير مصطفى صادق الرافعى إلى ذلك الوجه قائلا إن أسلوب القرآن هو مادة الإعجاز العربى فى كلام العرب كله وليس عن ذلك شىء إلا وهو معجز ٣٤.

والحق أن بلاغة القرآن هى السر هذا الإعجاز كما يذكر أحمد بدوى إن أسلوب القرآن نسيج وحده من ناحيه نظمه وتأليف ونسقه البيانى وإنه يتميز كل التميز عن سائرالأساليب لا يدانيه أسلوب ولا يرقى إلى سموه بيان ومن الخير أن نختار بعض الآيات القرآنية استدلالا على ذلك :

١ــ يقول سبحانه وتعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعه شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد).

٢ــ يقول عز وجل فى وصف أهل الجنة : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون)

٣ــ قوله عز وجل: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا) ٣٥، (فأنبتنا به جنات وحب

الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج).

٤ــ قوله سبحانه وتعالى: (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار).

٥ــ قوله تعالى: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا المال والبنون زينه الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا).

٦ــ قوله عز من قائل: (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والارض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)

٧ــ قوله جل وعلا: (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) ٣٦.

إلى هذه الآيات الكريمة وروعة نسقها وجمال عبارتها وإحكام صيغتها وقوة ترابطها ومدى تأثيرها فى النفس والعقل وانظر إلى بعض محاولات الكفار المشينه فى تقليد القرآن ومحاكاته لترى الفرق واضحا والبون شاسعا ومن هذه المحاولات المضحكه المزريع قول مسيلة الكذاب: والمقديات زرعا والحاصدات حصدا والزاريات قمحا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما إهاله وثمنا لقد فضلتم على اهل الوبر وما سبقكم اهل المدر وقوله ضفضع بنت ضفضعين نقى ما تنقين أعلاك الماء واسفلك فى الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الارض ولقرش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون وقوله والليل الاطخم والذئب الادلم والجذع الازلم ما انتهكت اسيد من محرم وقوله الم ترى كيف فعل ربك بالحبلى اخرج منها نسمه تسعى من بين الصفاق وحشا ٣٧.

ويعلق الباقلانى على كلام مسيلمة قائلا فأما كلام مسيلمه وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن نشتغل به وأسخف من أن نفكر فيه وأما مصطفى صادق الرافعى فيقول وكل كلامه على هذا النمط إنه سخيف لا ينهض ولا يتماسك بل هو مضطرب النسج مبتذل المعنى والحق انه شتان شتان بين هذا الكلام السخيف وبين روعة القرآن واسلوبه العظيم ولهذا يقول صاحب التراز واما ما يحكى عن مسيلمه الكذاب فهو بالخلاعة احق منه بالمعارضه لنزول قدرة وتمكنه فى الحماقه لان من حق ما يكون معارضا ان يكون بينه وبين المعارض مقاربه ومداناه بحيث يشتبه الامر فيها فاما إذا ان الكلامان فى غاية البعد والإنقطاع فلا يعد احدهما معارضا للاخر وقد كان العلوي صاحب الطراز من أكثر العلماء دفاعا عن بلاغة القرآن وفصاحته.

وجوه أخرى للاعجاز ذكر بعض العلماء اللذين سخرهم الله للدفاع عن القرآن الكريم وجوها اخرى للإعجاز منها اخبار القرآن عن قضايا وأمور لا يفعلها ٣٨، الكفار ولو فعلوها لما كان معجزه زمنها روعته فى السماء وهيبته فى القلوب وبقاؤه على الزمن وخلوده وحفظه ومنها ان قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه ومنها تيسير حفظه وجعله فى حيز المنظوم اللذى لم يعهد والإخبار عن اسرار الضمائر وكشف ما خفى منها مثل حديثة عن المنافقين ومنها الاعجاز التأثيرى للقرآن فى الإنسان والإعجاز التشريعى وغير ذلك كثير ٣٩

<u>الحديث النبوى الشريف وبلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم</u>

ـ تعريف بالحديث النبوى الشريف:

هو كل ما سبت عن النبى ص او كل ما أضيف او اثر او حكى او روى عن النبى ص مما ليس قرآنا من قول او فعل او تقرير او صفه، وقد اهتم علماء الحديث به

متنا وسندا رواية ودراية فنشأ ما يسمى بعلم الحديث الذى صارت له مصطلحات وقواعد

ـ مكانته:

يحتل الحديث النبوى الشريف المكانه الثانيه بعد القرآن الكريم فى التشريع الإسلامى فهو المصدر الثانى من مصادر هذا التشريع وترجع اهميه الحديث إلى ان القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامى او أحامه مجمله دون تفصيل وأنه هو الذى يفصلها ٤٠، فهو يفصل الإجمال ويفسر الاحام ويوضح الغامض والمبهم ويتمم القرآن فى بيان الاحكام الإسلاميه ويخصص العموم ويقيد المطلق ويفسر المشكل ولهذه المكانه البالغة اهتم به المسلمون ومضوا يروونه ثم يدونوه وكان الرسول ص يحث على روايته فيقول نضر الله امرا سمع مقالته فحفظها وواعاها واداها ويقول اللهم ارحم خلفائى فيسأله الصحابه ومن خلفائك فيقول اللذين يرون احاديثى ويعلمونها الناس ويقول صلى الله عليه وسلم (تركت فيكم ما ان تمسكتم به فلم تضلوا بعدى ابدا كتاب الله وسنتى ويحذ على الروايه الصحيحه فيقول من كذب عليا عامدا فاليتوبوا مقعده من النار)

ـ مفهوم الحديث القدسى والفرق بينه وبين الحديث النبوي:

عرف العلماء الحديث القدسى لغه بانه الطهو اى المنسوب إلى الذات القدسيه واصطلاحا هو ما نقل إلينا عن النبى صلى الله عليه وسلم مع اسناده إلى ربه جل جلاله ٤١.

وقد ذكر بعض الدراسيين أن الحديث القدسى هو كل قول إضافه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ويسمى حديثا لأن الرسول ص يحكيه ويرويه عن ربه كما تروى الاحاديث ونسبته على القدس بمعنى الطهارة والتنزيه وينسب إلى

الله لأنه صدر عنه تعالى ويتجلى الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى فيما يلي:

١ـ الحديث القدسى على الراجح لفظه من عند الله تعالى ويجوز ان يكون النبى ص بخلاف الحديث النبوى لفظه من عند النبى صلى الله عليه وسلم.

٢ـ الحديث القدسي مروى بطريق الآحاد وأما الحديث النبوى فإن فيه ما هو مروي بطريقة تواتر ومنه ما هو مروى بطريق الآحا.

٣ـ الحديث القدسي مقطوع بنزول معناه من عند الله تعالى لما ورد فيه من النص الشرعى على نسبته إلى الله تعالى أما الحديث النبوى فلم يرد فيه مثل هذا النص

ـ علامات الحديث القدسي:

من علامات الحديث القدسي أن لروايته صيغتين هما:

١ـ ان يقول قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ٤٣.

٢ـ ان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة.

ـ الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:

١ـ القرآن الكريم معجزه والحديث القدسى ليس معجزه القرآن الكريم متحدى به حيث تحدى به الله عز وجل الانس والجن اما الحديث القدسى فغير متحدى به.

٢ـ القرآن الكريم متعبد بتلاوته وأما الحديث القدسى فليس متعبد بتلاوته.

٣ـ القرآن الكريم كله مروى بالتواتر وأما الحديث القدسي فإنه لا يبلغ حد التواتر.

٤ـ القرآن الكريم منزل بواسطة جبريل يخلاف الحديث القدسي.

٥ـ القرآن الكريم لفظه ومعناه من الله تعالى وأما الحديث القدسى فيجوز أن يكون اللفظ من النبى ص واما معناه فمن الله عز وجل.

٦ـ لا تكون الصلاه إلا بالقرآن الكريم بخلاف الحديث القدسي.

٧ـ لا يمس القرآن الكريم إلا بطهارة وأما الحديث القدسى فيجوز مسه من المحدث

٨ـ القرآن الكريم وحي متلو وأما الحديث القدسي فوحي مروي ٤٣.

٩ـ جاحد القرآن الكريم يكفر وأما جاحد الحديث القدسي فلا يكفر.

١٠ـ القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى فيقال قال الله تعالى أما الحديث القدسي قد يروى مضافا إلى الله وتكون النسبه اليه حين إذ نسبة انشاء فيقال قال الله تعالى او يقول الله تعالى وقد يروى مضافا إلى الرسول الله ص وتكون النسبه حين إذ نسبه اخبار لانه ص هو المخبر عن الله تعالى فيقال قال رسول الله ص فيما يرويه عن ربه عز وجل.

١١ـ يحرم روايه القرآن بالمعنى اما الحديث القدسى فيصح روايته بالمعنى.

ـ منزله الحديث النبوى الأدبية:

يمثل الحديث النبوى الشريف القمه فى البلاغة والفصاحه بعد القرآن الكريم وذلك لما عرف عنه ص من انه كان افصح العرب على الاطلاق ويشهد على ذلك قوله انا لفصح العرب بيد انى من قريش وقوله ص بعثت بجوامع الكلم وقول سيدنا ابى بكر مخاطبا النبى ص لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت افصح منك فمن ادبك علمك يا رسول الله فقال عليه السلام ادبنى ربى فاحسن تأديبى لقد كان ص ما يقول الرافعى متصرف اللسان يضعه من الكلام حيث شاء لا

يستكره فى بيانه معنى ولا يند فى لسانه لفظ ولا تغيب عنه لغه ٤٤، ولا تضطرب له عباره ولا ينقطع له نظم ولا يشوبه تكلف ولا يشق عليه منزع،

ولقد وصف الجاحظ أقوال النبى وأحاديثه فقال هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عنه الصنعه ونزه عن التكلف واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر وهجر الغريب الوحشى و رغب عن الهجين السوقى فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة.

ـ السمات الفنيه العامه للحديث النبوي:

يتسم الحديث النبوى الشريف بسمات فنيه رائعة أهمها وأبرزها ما يأتى:

١ـ البساطه والسهوله والبعد عن التكلف والصنعه والتعقيد: فالألفاظ والعبارات تنساب انسيابًا بلا تكلف ولا زخرفة ولا يتعمد فيها السجع إلا ما جاء عفو الخاطر ترتاح لها الآذان وتطمئن إليها النفوس وتقبل عليها القلوب لا تعتقد فى تلك الألفاظ ولا نشوز٤٥، ولا تقر ولا التواء ولا غرابه ومثال ذلك قوله ص إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى وقوله ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه وقوله المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وقوله إن من الشعر لحكمه وقوله الظلم ظلمات يوم القيامه وقوله إنما الطاعة فى المعروف.

٢ـ الإيجاز: فألفاظ الحديث النبوى الشريف يغلب عليها الايجاز مع قوة الحبكه والبعد عن الحشو الزائد وذلك هو الطابع العام الذى يغلب عليها كما يبتعد عن الإطاله وتحمل كلماته القليلة معانى كثيرة متدفقه وإذا لجأ النبى ص إلى شىء من الإطناب والبسط فانما ذلك استجابه لدواع نفسيه او أمور دينيه ومن أمثلة الأحاديث التى تميزت بإيجازها وقلة كلامها مع تدفق معانيها قوله نضر الله وجه رجل أوجز

فى كلامه واقتصد فى حاجته وقوله ص ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب وقوله إنما الطاعة فى المعروف وقوله جدع الحلال أنف ٤٦ الغيرة وقوله إنما الأعمال بالنيات وقوله الحرب خدعه وكم من أناس جاءوا يسألونه فيرد عليهم بكلمه واحده او كلمتين فقط.

٣ـ دقة الصور البلاغيه وروعة الخيال:

تميزت الأحاديث النبوية الشريفة بوجود صور بلاغيه دقيقة مبتكرة آيه فى الروعة والجمال وغاية فى الدقة والابتكارولكن بدون تعمل او قصد وهى صور تتميز بحسن الملاءمه وجودة التعبير وأدائها للمعنى وذلك مثل قوله إياكم وخضراء الدمن فقد شبه المرأه الحسناء التى تنبت فى منبت السوء بالدمنه لقبح باطنها وقوله ص الآن حمى الوطيس كناية عن اشتداد المعركه وقوله رفقا بالقوارير وقوله إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى فلقد شبه المتعبد الذى يفرغ طاقته ويستنفذ قوته فى العباده بالنبت وهو الذى يغذ السير ويجهد دابته بعيدا عن رفاقه فتضعف ناقته فلا يستطيع ان يقطع مسافه السفر ولا يصل إلى هدفه وقوله إياك والمخيله والمخيله هى سبل الإزار كنايه عن الكبر ومثل ذلك كثير فى أحاديثه.

٤ـ ملاءمة الألفاظ للمعاني:

تأتى الألفاظ فى أحاديثه مناسبة تماما للمعنى فلقد كان عليه السلام يحرص كل الحرص على دقة اختيار الكلمات لتلائم المعنى مع الإيجاز فى العبارة ولطف فى الإشارة ودقة فى التلميح وفصاحة ٤٧ فى اللفظ وجودة فى التعبير وبراعة فى الملائمه بين المعانى والكلمات ويتضح ذلك على سبيل المثال فى قوله صلى الله عليه وسلم: اليد العليا خير من اليد السفلى وقوله عليه السلام المرء كثير بإخوانه وقوله لا

يدخل الجنه من لا يأمن جاره بوائقه وقوله صلى الله عليه وسلم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته وقوله مطل الغنى ظلم وقوله لا يلدغ المؤمن جحر مرتين.

٥ـ وجود أغراض وموضوعات جديدة:

أثرت الأحاديث النبويه الشريفه فى مجالات القوم وعالجت كثير من الشؤن التى جدت على حياة العرب ما عالجت أغراضا وموضوعات لم تكن موجوده من قبل من عبادات وفرائض وأحكام وجهاد ودعوه ووعظ وارشاد وحياه مجتمع ومحاربه مفاسد اجتماعيه ومن دعوه إلى وحدانيه الله ووصف لامور الحكم وضرورات الحياة وبيان الحلال والحرام بالإضافة إلى الحديث عن معان جديده كالعقيدة والتشريع والحديث عن الحياة الاخره والحق انها عبرت عن نظرات صائبه وفكر ثاقب وإرتادت حقولا جديدة وأغراضا قشيبه لم تكن معروفه من قبل

٦ــ ضرب الأمثال وكثرة الحكم:

تميزت الأحاديث النبويه بضرب الأمثال وكثرة الحكم الرائعه لإعطاء العبرة والموعظة ولتقريب المعنى إلى الذهن وذلك مثل قوله ٤٨ (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم مثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفه طيبه قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها اجادب امسكت الماء فنفع بها الناس فشربوا وسقوا ورعوا)، ومثل قوله (المعبر عن حكمه رائعه أن الرائد لا يكذب أهله وقوله الصبر عند الصدمه الاولى وقوله ترك الشر صدقه وقوله وعد المؤمن كأخذ بيده وقوله الدين النصيحه).

٧ــ التأثر بالقرآن الكريم:

كان هذا أمرًا بدهيًا فالرسول صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الاحاديث وهو الذى انزل عليه أعظم كتاب وهو القرآن الكريم لابد أن يتأثر فى أحاديثة بهذا

الكتاب العظيم معني واسلوبا ونسقا وعبارة ولذلك يقول اوتيت الكتاب ومثله معه ومن باب تأثره ص بالقرآن الكريم قوله ان الله يرضى لكم ثلاث ويكره لكم ثلاث يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبله ولا تفرقوا وان تناصحوا من ولاه الله ابركه ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ومن باب تإثره ص بالقرآن انه كان يستشهد بآيات منه فى احاديثه والحق ان كلامه ص منذ عن اللغو والباطل وكان قمه فى الفصاحه والبلاغه والإيجاز بعد القرآن الكريم ٤٩.

إن كلامه **صلى الله عليه وسلم** كما يقول الجاحظ هو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الأفهام وقلة عدد الكلام مع إستغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمه ولا زلت به قدم ولا بارت له حجه ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار لم يسمع الناس بكلام قط اعم نفعا ولا اقصد لفظا ولا اعدل وزنا ولا اجمل مذهبا ولا اكرم مطلبا ولا احسن موقعا ولا اسهل مخرجا ولا افصح معنى ولا ابين فيه فحوى من كلامه **صلى الله عليه وسلم.**

لقد جاء كلامه **صلى الله عليه وسلم** نقى اللفظ واضح الأسلوب حسب الإيجاز حسن الإطناب خاليا من السجع المستكره مشتملا على المعانى الساميه فهو جدير ان يجمع الفضل من اقطاره لذلك كان ابلغ كلام عرفه الناس بعد القرآن ٥٠.

ـ أثر القرآن الكريم والحديث الشريف فى اللغة والأدب:

القرآن الكريم هو كلام الله الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه المعجزه الخالدة الباقية وهو مفخرة العرب فى لغتهم والنمط الفريد الذى لا يحاكى ولا يجارى ولا يبارى وقد تحدى به الله عز وجل أرباب الفصاحه وأساطين البلاغة وشهد له ألد أعدائه الوليد بن المغيرة حيث قال والله لقد سمعت من محمد

كلاما عجبا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوه وإن عليه لطلاوه وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه فقال له المشركون لقد سحرك محمد ويأتى الطابع العام فى الآيات المكية متميزا بالدعوه إلى توحيد الله عز وجل وتحقير الأصنام وازدراء الأوثان وتخويف الناس من عذاب عسير يوم القيامه واما الآيات المدنية فتتميز بالدعوة إلى تنظيم شئون الدوله وأمور الحكم٥١.

وقد بهر القرآن الكريم العرب بأسلوبه وبلاغته وأعجزهم بنظمه وسحرهم بفصاحتهم ويرجع سمو القرآن وعظمته الادبيه إلى ما فيه من اسرار منها قوة التصوير وروعة التعبير ودقة الاحكام وحسن مواقع الايجاز والاطناب وما ينبث فى جوانبه من مختلف الحكم التى تروع القلوب وتهز المشاعر واما الحديث النبوى فهو كل ما ثبت عن النبى ص من قول او فعل او تقرير او صفه وترجع اهمية الحديث النبوى إلى انه الفصل الثانى من اصول التشريع الاسلامى والى ان القرآن يتحدث عن اصول الدين مجملا واما الحديث النبوى فانه يفصل ذلك الاجمال ويفسر الاحكام ويوضح الغامض وقد منح الله عز وجل نبيه الكريم ص خلابة المنطق وصفاء القريحه ونقاء الفطره وكانت بلاغته ص مضرب المثل وحديث الناس وكان كلامه يفيض عذوبه ورقة ويقطر سلاسة ورونقا وهو يأتى فى المرتبه الثانيه من حيث البلاغة والفصاحه بعد القرآن الكريم وقد كان للقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف أثار بالغة فى اللغة والادب ويمكن ان نتعرف على شىء من هذه الاثار

ـ أثرهما فى اللغة

أحدث القرآن والحديث نوعين من تآثير فى اللغه احدهما مباشر والآخر غير مباشر وتوضيح ذلك على النحو التالي ٥٢:

ـــ التأثير المباشر الأثر الخاص: اللغة من حيث هى حروف وصوتيات وتراكيب تدل على معان تأثرت بالقرآن الكريم والحديث الشريف تأثرا كبيرا ومن مظاهر ذلك ما يأتي:

١ـ إحداث ألفاظ لم تجر على ألسنة العرب قبل الإسلام ومن ذلك لفظ الجاهليه اللذى حدث فى الإسلام ليدل على الزمن الذى عاش فيه العرب قبل البعثه النبوية ولفظ المنافق والفاسق ولفظ صير بمعنى الثقب اللذى ورد فى حديث الرسول ص اللذى يقول فيه من اطلع من صير باب فقد دمر والتعبير بخضراء الدمن عن المرءه الحسناء فى منبت السوء وكلمة مصحف وكلمة قوارير التى يصف بها الرسول النساء فى قوله رفقا بالقوارير وقوله يا خيل الله اركبى مات حتف انفه وكلمة زلقا ووصف الذانيه بالزماره وتسميه صفر الاول محرما هذا عدا الالفاظ الدينيه والفقهيه الكثيرة:

٢ـ اختفاء الألفاظ كانت مستعملة عند الجاهليين فلما جاء الاسلام ابطل مدلولتها لانها لا تتفق والشريعة الربانية السمحه ومن ذلك ابيت اللعن وقول العبد لسيده ياربى وعم صباحا وعم مساء والفاظ المرباع والنشيطه والصفايا والفضول والمرباع هو ربع الغنيمه وهو نصيب الرئيس فى الحرب والنشيطه من الغنيمه هى ما أصابه٥٣ الجيش من الغنيمه فى طريقة إلى الحرب وكانت للرئيس مع الربع واما الصفايا فهى ما يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمه يأخذه قبل القسمه وأما الفضول فهو ما فضل من القسمه مما لا يمكن تقسيمه كسيف او اثير ويكون من نصيب الرئيس وقد عبر ابو غنمه عن ذلك مخاطبا بسطام ابن قيس : لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول وكلمه صرورة لمن لم يجح او لم يتزوج تبتلا لا صرورة فى الإسلام:

٣ـ التوسع فى مدلولات بعض الألفاظ والاتجاه بها إلى معان جديده تتفق والعقيده الاسلامية ومن ذلك الاسلام والصلاه والصوم والحج والركوع والسجود والكافر والمسلم فلقد نقل الإسلام هذه الالفاظ من معانيها اللغويه إلى معان استطلاحيه شرعية وغير ذلك.

ـ التأثير غير المباشر الآثر العام:

والمقصود به ما كان متصلا بالغه وعائدا اليها ولكنه ليس فى صميمها وفى اصول تكوينها ومعانيها وانما يعود عليها بالفائده العامه ومن ذلك ما يأتي:

١ـ توحيد لغة العرب وجمعهم على لهجه واحده هى لهجه قريش وهذه اللهجه هى لهجه القبائل الشماليه فى الجاهليه ولكن ٥٤ لم يكن لنا السيادة التامة وكانت هناك لهجات مختلفة باختلاف الاقاليم والقبائل وقد عمل القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف على ان هذا التوحد.

٢ـ انتشار اللغة العربيه واتساع نطاقها حيث دخلت هذه اللغة جميع البلاد التى فتحها العرب ودخلها الاسلام إذ كان حتما على اهل تلك البلاد ان يتعلموا لغة القرآن المتعبد بتلاوته .

٣ـ تهذيب اللغة من الحوشية ومن الالفاظ الغربيه وإقامتها فى اسلوب بلاغى معجز.

٤ـ تكون علوم كثيرة حول القرآن والحديث مثل الفقه وأصول الفقه والتفسير والقراءات وعلوم الحديث والنحو والبلاغه وقد لا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم.

٥ـ خلود اللغة العربيه وبقاؤها وحفظها من عوادى الزمن لان الله عز وجل تكفل بذلك فقال إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ولأن القرآن محفوظ خالد فسوف تحفظ اللغة العربيه وتخلد إلى ابد الآبدين ٥٥.

٦ـ تحول اللغة العربيه إلى لغة مقدسه حيث صارت لغة دين سماوى عظيم يبهر العقول ويأخذ بالألباب.

٧ـ تحويل اللغة العربيه إلى لغة رسميه لكثير من الدول التى فتحها المسلمون بل صارت لسان الدول الإسلامية.

٨ـ جعل القرآن الكريم اللغة العربيه لغة تعليمي.

ـ ثانيا أثرهما في الأدب:

ـ رفع القران الكريم والحديث النبوي الشريف من منزلة النثر بعد أن كانت المكانة الأولى للشعر وحده بين فنون الأدب .

ـ احياء القران والحديث فنونا ادبية كثيرة مثل القصص الديني وادب الزهد وادب الوعظ وادب الدعوة والجهاد والوصايا الدينية .

ـ ابطلا فنونا ادبية كانت موجوده لانها لا تتفق ومبادىء الدين الكريم مثل سجع الكهان والهجاء الكاذب السىء والفخر المبالغ فيه والغزل الفاضح

ـ اكتسب الخطباء والشعراء والكتاب اساليب القرآن الكريم وطرائقه فى التعبير فاحتذوا حذوه واتبعوا نهجه وحاكوا الفاظه واساليبه واقتبسوا من آياته وعمدوا إلى سهولته وانسجامه ينسجون على منوالها هاجرين حوشى اللفظ ومعقد القول٥٦.

ـ تهذيب الألسنه وتثقيف الطباع والقضاء على التعقيد البيانى واحلال السلاله والسهوله وسلامة الاسلوب والبيان.

ـ إدخال كثير من التراكيب البيانيه الجديدة مثل قول صلى الله عليه وسلم الآن حمى الوطيس للدلالة على شدة الحرب واستعارها ومثل خضراء الدمن للمرأه الحسناء التى تنبت فى منبت السوء ومثل قوله صلى الله عليه وسلم جدع الحلال انف الغيره هدنه على دخن بعثت فى نفس الساعه لا ينتطح فيها عنزان.

حرص العرب على معرفه اسرار القرآن والحديث وحاولوا التعرف على اساليبهما المتنوعه فانطلقوا يبحثون عن الفاظ اللغة والامثال والخطب والحكم والوصايا ليستعينوا بها على فهم القرآن والحديث وما زال القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف النبع الثر الذى لا ينضب بلاغة ولا يغيض فصاحه وما زال لهما التاثير القوى فى اللغة والادب وسيظل لهما هذا التأثير إلى ان يرث الله الارض ومن عليها ٥٧.

ـ الرسائل والعهود:

ـ فى صدر الاسلام:

كان العرب أمة أمية لا تعرف القراءة ولا تحسن الكتابه إلا من ندر والدليل على ذلك انه كان فى مكه المكرمه ام القرى ذات المركز الادبى والنفوذ الدينى والنشاط التجارى عند بعثة النبى صلى الله علية وسلم عدد قليل ممن يعرفون القراءه لا يزيدون عن سبعة عشر نفرا وكان فى المدينه المنوره عند هجرة النبى عدد لا يزيد عن احد عشر شخصا ولما جاء الاسلام شجع على العلم والتعلم وعلى القراءه والكتابه فانتشرت الوان متعدده من الكتابه كان منها العهود والرسائل والحق ان الرسائل والعهود تعد من اهم وابرز الوان الكتابه فى صدر الاسلام وقد اختلفت الدارسون والباحثون فى تقسيمها حسب العصور والسنين ومهما يكن من امر فإنه

يمكن تقسيمها إلى رسائل وعهود فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ورسائل وعهود فى عصر الخلفاء الراشدين

ـ أولًا الرسائل والعهود النبوية:

يمكن القول إن الرسائل والعهود النبوية قد مرت بثلاثة مراحل تاريخية هى:٥٨

١ـ من الهجرة النبوية إلى غزوة الخندق ١-٥

٢ـ من غزوة الخندق إلى فتح مكه ٥-٨

٣ـ من فتح مكه إلى نهاية عصر النبى ٨-١١

ويرى البعض أنها أربعة مراحل حيث يجعل الفترة من فتح مكه إلى غزوة تبوك ٨-٩ مرحله ويجعل الفتره من غزوه تبوك إلى نهاية عصر النبى ٩-١١ مرحله وإن كنا نرى انه لا يوجد اختلاف كثير بين المرحلتين من حيث الناحية الادبيه لان الأثر التاريخى يبدو فى شروط المعاهدات لافى أسلوبها وصياغتها الفنيه

وقد تميزت كل مرحله بعدة سمات:

فالمرحله الأولى ١-٥ هـ تتسم بغلبة النواحى السياسية لأن غاية ما كان يهدف إليه النبى فى تلك المرحله هو محالفه القبائل لإضعاف قوة قريش ولذلك كانت تعقد المحالفات مع القبائل وهى على حالة الشرك ومن تلك المعاهدات والرسائل ما نراه فى كتاب النبى إلى نعيم بن مسعود بن رخيلة الاشجعى بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما حالف عليه نعيم بن مسعود بن رخيله الاشجعى حالفة على النصر والنصيحه ما كان احد مكانه ما بل بحر صوفه ٥٩.

ومن ذلك كما كتبه صلى الله عليه وسلم إلى بنى ضمرة بن بكر بن مناة بن كنانه أنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من دهمهم وعليهم نصر النبى

مابل يحرصوفه إلا ان يحاربوا فى دين الله وان النبى إذا دعاهم أجابوه عليهم بذلك ذمة الله ورسوله ولهم النصر على من بر منم واتقى ومن ذلك ايضا ما كتبه لبنى زرعة وبنى الربعة من جهينه من أنهم آمنون على أنفسهم واموالهم وأن لهم النصر على من ظلمهم او حاربهم إلا فى الدين والأهل وتعد هذه العهود من أقدم كتب النبى وهى عبارة عن معاهدات سياسية حربيه فيها مهادئة وموادعة ومناصرة مع غير المسلمين وكان عليه السلام يقصد بها تقوية نفوذ المسلمين ومركزها ضد مشركى مكه وليس فيها ما يشير إلى الاسلام وتتميز هذه العهود والمكاتبات من حيث الناحيه الفنيه بأنها خاليه من التفخيم والتعظيم والمبالغة ولا ترتبط باية قواعد فنيه فى البدء أو الختام وهى تعرض للمعنى دون تنسيق أو تنميق.

أما المرحله الثانيه ٥-٨ هـ فقد اتضح فيها قوة المسلمين ونفوذهم وصار النبى صلى الله عليه وسلم أقوى مركزا وأنفذ كلمة ٦٠.

فبعدما كان النبى صلى الله عليه وسلم يهادن القبائل وهى على حالة الشرك ولا يشترط عليها الإسلام فى مرحله الأولى فقد أصبح الإسلام من الشروط الواضحه فى أكثر الرسائل والعهود فى هذا الطور ومن الكتب التى وصلت إلينا من تلك المرحله وفيها تتضح قوة المسلمين وثقلهم ونفوذهم ما أرسله إلى بني جرمز بن ربيعه وهو من جهينه أنهم آمنون ببلادهم ولهم ما أسلموا عليه ومن تلك الكتب ما ارسله إلى هوذة بن على صاحب اليمامه وكان نصرانيا من محمد رسول الله إلى هوذة بن على سلام على من اتبع الهدى واعلم ان دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك ومن هذه الكتب والرسائل فى هذه المرحله ايضا ما بعث به إلى ابنى الجلندى جعيفر واعبد ملكى عمان من محمد رسول الله سلام على من اتبع الهدى اما بعد فأنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإنى رسول الله إلى كافه الناس لأنذر من كان حيا ويحق القول علي الكافرين وانكما ان اقررتما

بالاسلام وليتكما وان ابيتما ان تقرا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي في ملككما ٦١.

ومن هذه الرسائل أيضا ما بعث بها إلى أهل نجران يقول فيها بسم الله الرحمن الرحيم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب أما بعد فإنى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وادعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن ابيتم فالجزية فإن ابيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام ومن تلك الرسائل ما بعث بها إلى المنذر بن ساوى أخى بنى عبد القيس صاحب البحرين بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك فإنى احمد إليك الله الذى لا اله الا هو اما بعد فإن كتابك جاءنى ورسلك وانه من صلى صلاتنا واكل ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فإنه مسلم له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ومن ابى فعليه الجزية ولكن يجب ان يلاحظ انه صلى الله عليه وسلم لم يتشدد فى كل العهود فصلح الحديبية كان عبارة عن موادعة ومهادنه من الرسول رغبة فى صرف جهوده إلى ناحيه اخرى ولذلك حينما نقرأ هذا الصلح نشعر بذلك الأمر ومن ضمن ما جاء فيه باسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ٦٢

ففى هذه الكتب والعهود تظهر قوة المسلمين واشتراط الإسلام على من ارسلت اليهم ومن حيث الناحية الفنية فقد تراوح الأسلوب بين الايجاز والمساواة والإطناب واتسمت تلك الكتب عهود ورسائل غالبا بظهور نظام للبداية والختام وظهور بعض الصور البلاغية

وفى المرحلة الثالثة ٨-١١ هـ نلحظ أن الإسلام أو الجزية او فرض الزكاة قد أصبح من أهم شروط المعاهدات والمهادنات فلقد صار للمسلمين مركز قوى وثقل وتمكين وكان لفتح مكة أثر عظيم فى ذلك ومن هذه الكتب والمعاهدات والرسائل ما

ارسله إلى وائل ابن حجر واهل حضرموت من كتاب يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الاقيال العباهله من اهل حضرموت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاه ومنها تابة إلى أكيدر دومة من محمد رسول الله لاكيدر دومه تقيمون الصلاة لوقتها وتؤدون الزكاة بحقها عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء٦٣.

ومنها كتابه صلى الله الله عليه وسلم إلى جماع من تهامة بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى رسول الله لعباده العتقاء انهم آمنون ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاه فعبدهم حر ومولاهم محمد وان لهم على ذلك ذمة الله وذمة محمد محمد والسلام عليهم ومن الملاحظعلى هذه الكتب تفصيل الحقوق وإيضاح الوجبات وظهور شىء من التنميق فى الكلام وبعض السجعات الخفيفة ومهما يكن من امر فإن أهم السمات الفنية العامة لتلك الرسائل والعهود فى عصر النبى هي:

١ـ عدم الخضوع لقواعد معينه فى البداية او النهايه لهذه الرسائل والعهود فقد تبدا بالبسمله ثم من محمد رسول الله إلى وقد لا تأتى البسمله وقد يأتى فى البداية قوله السلام وسلام عليك وأما النهاية فقد يأتى لفظ السلام او السلام على من اتبع الهدى

٢ـ الإيجاز الذى يدل على انه صلى الله عليه وسلم كان يؤدى ما يريد من المعانى بأقل ما يمكنه من لفظ .

٣ـ البساطه فى الاسلوب والسهولة فى العبارة مع عدم التكلف إلى درجة قربها من لغة المحادثة والمخاطبة المعروفة لدى الإنسان العربي٦٤.

٤ـ الخلو من الصناعه اللفظية إلا نادرا أو ما جاء عفو الخاطر وبمعنى آخر الاقتصاد فى استخدام الاساليب البيانية ولعل أكثر الاساليب البيانية بروزا هو التشبيه أما الاستعارة فقليلة.

٥ـ قلة عبارات التفخيم وأساليب التعظيم فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر اسمه مجردا من كل صفه إلا ما جاء نادرًا.

٦ـ استخدام الجمل القصيرة وتتابعها فى بعض الرسائل سواء أكانت معطوفة أم غير معطوفة .

٧ـ ظهور الاقتباس من القرآن الكريم خاصة إذا كانت الرسالة موجهه إلى أهل الكتاب النصارى أواليهود رسائله إلى هرقل والنجاشى ويهود خيبر وكسرى فارس.

٨ـ استخدام عبارات معينه وذلك مثل قوله ما كان أحد مكانه أسلم تسلم ما بل بحر صوفة.

ـ ثانيا الرسائل والعهود فى عصر الخلفاء الراشدين:

خطت الرسائل والعهود فى عصر الخلفاء الراشدين خطوات متقدمة فلقد نمت وازدهرت وارتقت وأخذت تعالج شئون الحياة ٦٥ ، والدوله الإسلامية الجديدة وتنوعت موضوعاتها تبعا للتطور الذى أصاب تلك الحياة واهتم أصحابها فيها بالعبارة والأسلوب ومن امثلة تلك العهود والرسائل ما يلي:

١ـ عهد سيدنا أبى بكر إلى سيدنا عمر عندما حضرته الوفاة :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خلفية محمد رسول الله عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى

فيه وإن جار وبذل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون.

٢ـ رسالة سيدنا على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر:

بسم الله الرحمن الرحيم من على بن ابى طالب إلى معاوية ابن صخر اما بعد زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى حق عثمان ولعمرى ما ما كنت إلا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا يضربهم بالعمى إنما أنت رجل من بنى أمية وبنو عثمان٦٦ أولى بمطالبة دمه وأما شرفى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام وموضعى من قريش فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته

٣ـ كتاب سيدنا عثمان إلى على بن أبى طالب حين أحيط به:

أما بعد فإنه قد جاوز الماء الزبى وبلغ الحزام الطبيين وتجاوز الأمر بى قدره وطمع فى من لا يدفع عن نفسه فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق.

٤ـ من رسالة سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري فى القضاء:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن القضاء قريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك .

٥ـ من رسالة أبى بكر إلى أهل الردة:

من أبى بكر خلفية رسول الله صلى الله عليه وسلم غلى من بلغة كتابى هذا من عامة وخاصة أقام على الاسلام أو رجع عنه سلام على من اتبع الهدى ولم

يرجع بعد الهدى إلى الضلاله والعمى فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن ى إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد فإن الله أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله ٦٧، بإذنه وسراجا منيرا لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين قد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه اغترارا بالله وجهاله بأمره وإجابة للشيطان لا يقبل من احد إلا الإسلام فمن آمن خير له ومن تركه فلن يعجز الله ومهما يكن من امر فإن تلك العهود والرسائل قد احتفظت فى ذلك العصر بالطابع العام الذى اتسمت به الكتابه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخاصة فى المرحلة الأخيرة ولكن مع ذلك فإن لها خصائص وسمات تنفرد بها اهم هذه السمات وأرزها الاهتمام بجودة الاسلوب والتأنق فيه وقصر الفقرات وجمال العبارة وتجدد المعانى وتنوع الموضوعات هذا هذا بالإضافة إلى أنها لم تحرم من جمال البساطة والسهوله مع التأثر بالقرآن الكريم لفظا وأسلوبا ومعنى ونسقا وبروز عنصر الصورة والخيال مع القصد فى الغرض دون إطالة غالبا وعلاوة على ذلك الاستشهاد بالشعر أو الأمثال احيانا ولا تكاد تختلف فى البناء الفنى عن عصر النبوة من حيث البدء والختام مع الخلو من الفاظ التفخيم وعبارات التعظيم٦٨.

<u>من فنون النثر فى صدر الإسلام</u>

وجدت فنون نثرية متعددة فى صدر الإسلام لعل أهمها وابرزها ما ياتى

ـ أولا الخطابة:

لم تكن الخطابة واسعه الآفاق فى الجاهلية كما كانت فى صدر الإسلام وربما يعود ذلك إلى عدة أسباب منها:

١ـ أنها كانت عدة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والخلفاء الراشدين فى ثير من الأمور.

٢ـ أنها كانت لسان حال الدعوة الإسلامية الناطق بمزاياها الداعى إلى اعتناقها المدافع عنها فلقد اعتمد عليها الرسول والصحابة خاصة فى دعوة الناس إلى عبارة الله الواحد القهار.

٣ـ قلة انتشار الكتابة فلقد كانت الكتابة غير فاشية أو شائعة أو منتشرة٦٩.

٤ـ موقف الدين من الشعر حيث وقف الإسلام من الشعر موقفا محددا

٥ـ حاجة الإسلام إليها فحيثما حل المسلمون لابد لهم من الخطابة وليس بعيدا عن أذهاننا ان الرسول كان يعرض الدعوة ويشرح العقيدة فى الاسواق ومواسم الحج والجمع والأعياد عن طريق الخطابة.

٦ـ حرية الرأى التى كفلها الإسلام للانسان حيث أعطاه حرية المناقشة وإبداء الرأي.

٧ـ بلاغة الإنسان العربى وفصاحته وقوة بيانه وقدرته على الارتجال ومما يدل على ذلك قول الجاحظ وكانت الخطابة فيهم طبيعة وقريحة كالشعر لا تحملهم عناء ولا تكلفهم رهقا.

ـ موضوعات الخطابة:

نجحت الخطابة فى صدر الإسلام فى أداء رسالتها ونهضت بها بلا فتور وتعددت موضوعاتها وإن كان الدين هو محورها ولعل اهم الموضوعات التى انتظمت فيها الخطابة آنذاك هي:

١ـ دعوة الناس إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر وذلك بدلا من المفاخرات الجاهلية .

٢ـ الحث على الجهاد فى سبيل الله والفتوحات والدعوة إلى نشر الدين بدلا من الدعوة فى الجاهلية إلى السلب والنهب والاخذ بالثأر ٧٠.

٣ـ شرح آيات الدين وأحكامه وبيان فضائلة وتوضيح اسراره ومزاياه ولفت الناس إلى ما يصلحهم فى دنياهم ويسعدهم فى اخراهم.

٤ـ الدعوة إلى العبادة بل إن الخطابة صارت جزءا من العبادة فى الجمعة والعيدين.

٥ـ الدفاع عن الرأي والمبدأ والعقيدة وما استلزمته الخلافة ونظامها.

ـ رسوم الخطابة ونظمها وهيئة الخطيب:

١ـ القيام على نشز عال أو مكان مرتفع كالمنابر وذلك الإشراف على السامعين وهذا هو أصل سنة المنابر فى المساجد.

٢ـ إمساك الخطيب بعصا أو اعتماده على سيف.

٣ـ حرص الخطيب على الاعتجار بالعمامة والاشتمال بالرداء؛ وكان يجب أن تتوافر فى الخطيب عدة مزايا وصفات أهمها:

١ـ حسن السمت والوقار .

٢ـ جهارة الصوت وقوته.

٣ـ طلاقة اللسان وعدم الحصر أو العي أو التلعثم .

٤ـ كثيرة الريق .

٥ـ رباطة الجأش.

٦ـ الفصاحة والبلاغة. ٧١

ـ سمات الخطابة:

اتسمت الخطابة فى صدر الإسلام بعدة سمات أهمها:

١ـ دورانها حول معانى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وخطابة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى معان جديدة لم تألفها اللغة العربية من قبل.

٢ـ كانت تقوم على الإقناع والتأثير فى النفوس باستخدام الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة عقلا ونقلا.

٣ـ الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف حينا وبالشعر والحمة والمثل أحيانا .

٤ـ الاستهلال بالتحميد والتوحيد والثناء على الله بما هو أهل له بالإضافة إلى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وكان الخطباء يحرصون أشد الحرص على البدء بالحمد حتى صار ذلك تقليدا يتبع وسنة فى كل خطبة وكانت الخطبة التى تخلو من ذلك تسمى بالبتراء والتى تخلو من اقتباس من آيات من القرآن والصلاة على النبى تعرف بالشوهاء .

٥ـ لم تلتزم السجع وما كان يأتى بها من سجع فهو عارض عفو الخاطر وكان الرسول لا يسجع فى خطابته وكان ينفر منه كراهية التشبه بالكهان فى سجعهم.

٦ـ الوحدة الموضوعية فلقد أصبح للخطابة موضوع واحد يجزل فيه الخطيب ويصول ملما بأطرافه غير مستطرد إلى موضوع ٧٢ آخر وقد أدت هذه الوحدة الموضوعية إلى الترابط بين أجزاء الخطبة والتلاحم بين فقراتها ووضوحها.

٧ـ ومن حيث الأسلوب فقد كان أسلوبها مساوقا للطبع لينا هادئا فى التبصير بالدعوة وشئون الحياة وثائرا عنيفا عاصفا قاصفا على أعداء الدعوة وكان فيه سهولة ونصاعة وانسجام تام فى بناء الكلام وابتعاد عن الالفاظ الغريبة الحوشية ،الميل إلى الإيجاز غالبا .

ـ ثانيا الكتابة :

ازدهرت الكتابة فى عصر صدر الإسلام ولعل ذلك راجع إلى تنويه الإسلام بفضلها ولا عجب فى ذلك فأول آية نزلت من كتاب الله دعت إلى القراءة والتعلم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل جاهدا على نشر الكتابة بين اصحابه حتى انه جعل فداء أسرى قريش أن يعلم من يعرف الكتابة عشرة من صبية المسلمين وقد كانت الكتابة موجودة فى الجاهلية ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كان فى مكه مجموعة ممن يحسنون الكتابة ١٧سبعة عشر نفرا تقريبا ولما انتقل إلى المدينه وجد حوالى أحد عشر نفرا لكن دائرتها انتشرت لانها كانت وسيله إلى حفظ القرآن الكريم وتعلمه ونشره وكان الصحابة يكتبون حتى يحفظوا وقد وصل كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم أربعين كاتبا وكان على رأسهم زيد بن ثابت وأبى بن كعب ٧٣.

ولقد اتخذت الكتابة وسيلة إلى نشر الدين وكتابة القرآن والمواثيق والرسائل وتسجيل العهود والوصايا والمصالحات والتوجيهات.

ـــ أنواعها :

والحق أن الكتابة فى ذلك العصر لم تكن مقتصرة على تابة القرآن بل استخدمت فى كل مكان ما يهم المسلمين من مواثيق ومعاملات وعهود ومراسلات ومصالحات وتوجيهات ووصايا وعظات وكتب أمان وكتب قسمة للغنائم ولا نكاد تصل إلى عهد سيدنا عمر بن الخطاب حتى تصير الكتابة جزءا اساسيا من أعمال الدولة فتتضمن كل تعاليمها ومعاملاتها وعلاقاتها مع غيرها والنظم الجديدة فى الدولة .

ـــ سماتها:

وقد اتسم كل نوع بسمات معينه فالمعاهدات غلب عليها الإسهاب لأنها كانت تتناول كثيرا من التفاصيل وأما كتب الأمان فتميزت بالقصر والإيجاز وأما الرسائل فلقد كانت ناشته ليس لها تقاليد مرسومة وإن جمع أسلوبها بين الدين والأدب الرفيع وغلب عليها اللغة البسيطة السهلة كما اتسمت بالإقتباس من القرآن الكريم واتسمت باختيار الألفاظ والجمل وحملت فى مضمونها مجموع النظم الجديدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى وضع اسس هذه النظم لها٧٤.

ـــ ثالثا الوصايا والمواعظ:

وجد فن الوصايا فى الادب العربى منذ العصر الجاهلى وكانت تلك الوصايا عبارة عن وصايا أخلاقيه واجتماعية اما فى صدر الإسلام فلقد تنوعت الوصايا ما بين أخلاقية واجتماعية ودينية وسياسية وحربية ومن أمثلة الوصايا الدينية ما يرونه أبو ذر قال أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات هن إلى احب من الدنيا وما فيها قال لى يا ابى ذر أحكم السفينه فإنالبحر عميق واستكثر الزاد فإن السفر طويل وخفف ظهرك فإن العقبة كؤود وأخلص العمل فإن الناقد بصير.

ومن الوصايا الاجتماعية الوصية المنسوبة إلى ابى الاسود الدؤلى التى يوصى فيها ابنته ليلة عرسها يقول فيها يا بنية كان النساء احق بأدبك منى ولكن لابد لى منه يا بنية إن أطيب الطيب الماء وأحسن الحسن الدهن وأحلى الحلاوة الكحل يا بنية لا تكثرى مباشرة زوجك فيملك ولا تباعدى عنه فيجفوك ويعتل عليك وكونى كما قلت لامك

خذى العفو منى تستديمى مودتى

ولا تنطقى فى سورتى حين اغضب

فإنى رأيت الحب فى الصدر والأذى

إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب ٧٥

ومن تلك الوصايا الاجتماعية والاخلاقيه وصية عمير بن حبيب الصحابى لابنائه :يا بنى إياكم ومخالطة السفهاء فإن مجالستهم داء وإنه من يحلم عن السفيه يسر بحلمه ومن يجبه يندم ومن لا يقر بقليل ما ياتى به السفيه يقر بالكثير وإذا أراد أحدكم ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فليوطن قبل ذلك على الأذى وليوقن بالثواب من الله إنه من يوقن بالثواب من الله لا يجد مس الأذى ومن الوصايا الحربية وصية سيدنا ابى بكر لاسامه بن زيد حين سيره إلى الشام:

ايها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوا عنى لا تخونوا ولا تغدرواولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروما اسم الله عليها وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوا بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله ٧٦

ومن الوصايا السياسية تلك الوصية التى وصى فيها سيدنا على رضى الله عنه ملك بن حارث الاشتر النحعى حين ولاه مصر وهذه مقتطفات منها:

اعلم يا مالك انى وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قلبك من عدل وجور وان الناس ينظرون من امورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاه قبلك أشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن بهم سبعا ضاريا اعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب وترضى ان يعطيك الله من عفوه وصفحته اطلق عن الناس عقدة كل حقد اسبغ عليهم الارزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح

انفسهم تفقد امر الخراج بما يصلح اهله فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم انظر فى حال كتابك فول على امورك خيرهم استوص بالتجار وذوى الصناعات واوص بهم خيرا الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين لا تطولن احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالامور إياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء إياك والعجلة بالأمور قبل اوانها واما المواعظ فهى نوع نثرى ويسميه البعض النثر الدينى وهو لا يتعلق بحال من احوال الدنيا او يتناول امرا من امورها إلا ٧٧ بقدر ما يرغب عنها ويزهد فيها قومها التوجيه إلى الله والدعوة اليه والترغيب فى الآخرة والتنفير فى الدنيا إنها فن ادبى جديد تربى وترعرع فى ظل الإسلام وأسلوبها يشبه إلى حد كبير اسلوب الخطابة الدينية ومن هذه المواعظ موعظة الرسول ايها المناس ان لكم معالم عانتهوا إلى معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ان المؤمن بين مخافتين بين اجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به واجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنه او النار.

ومنها موعظة سيدنا على بن ابى طالب كرم الله وجهه التى يقول فيها لا يرجون احدكم إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستحى إذا سئل عما لا يعلم ان يقول لا اعلم وإذا لم يعلم الشىء ان يتعلمه واعلموا ان الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد فإذا قطع الرأس ذهب الجسد

من فنون النثر فى العصر الاموى

تنوع النثر فى العصر الاموى وازدهر ونما نموا واسعا يمكن ان نمثل له ثلاثة فنون على النحو الآتي:

ـ الخطابة :

ـ عوامل ازدهارها :

ازدهرت الخطابة فى ذلك العصر ازدهارا وارتقت رقيا ملحوظا وقد وقف وراء هذا الازدهار وذلك الرقى عوامل عديدة أهمها:

١ـ الدين عامل ديني:

كان الدين عاملا مهما من عوامل رقى الخطابة إذ من المعروف ان هناك خطبة الجمعه والعيدين واينما حل الاسلام نصبت المنابر وقام الخطباء يعظون ويذكرون وقد تاسس فى كل مصر ٧٩ إسلامي ما يشبه المدارس الدينيه التى راحت تعلم الناس اصول الدين وتعظهم مستندة إلى الكتاب والسنه وكان الخطباء غالبا ما يتناظرون ويتجادلون وكان نتيجة لذلك ان طغت المناقشات وانبعثت المجادلات الكلامية وظهر الوعظ والقصص الدينى وعرف ما يسمى بجماعة الوعظ والقصاص بجانب الخطباء لقد دفع الإسلام بالخطابة إلى نشاط واسع وأدى بها إلى ازدهار كبير واثر قوى ونفع عظيم خاصة بعد ان رتب معاوية بن ابى سفيان جماعة من الوعاظ يعظون فى المساجد بعد ان كان هذا الامر مقصورا على الولاه والائمة

٢ـ السياسة عامل سياسى:

شغلت الامور السياسية اذهان الناس فى ذلك العصر وكثرت الاحزاب السياسية المناوئة حم بنى امية وكان لكل حزب خطباؤه الذين ينافحون عنه ويذودون عن حياضه وكان خطباء الاحزاب يستخدمون السنتهم فى التعبير عن آرائهم ومذاهبهم وفرقهم وفى نقض آراء الخصوم وتفنيدها لقد كان للسياسة وأحزابها والمحافل ووفودها والخلافة واتساعها والفرق المتعددة اثر بالغ فى ازدهار الخطابة

فـى ذلـك العصـر حيـث تجادلـت الاحـزاب وتنـاظرت الفـرق التـى مثلهـا خطباؤهـا المصاقع ٨٠.

٣ـ الثقافة الاجنبية عامل عقلى:

غـزت الثقافـة الاجنبيـة العقـل العربـى وفتقـت فيـه روح الجـدال والاحتجـاج فالموالى الذين دخلوا فى الاسلام زودوا العرب بثقافتهم وعلومهم واطلع العرب على معارف البلاد التى فتحوها فأدى ذلك إلى كثرة انواع المعرفة وبدأت الترجمه وكان ذلك كله حافزا على النهوض بالخطابة لقد رقى العقل العربى رقيا ملحوظا واصاب كثيرا من الثقافات الاجنبية واستعان الخطباء المتجادلون بهذه الثقافة المتعددة على المجادله والمنطق.

٤ـ السلفية العربيه عامل أدبى بلاغي:

كان العرب إلى هذا العصر على صله قوية بلغتهم العربية الاصيله ولم تفسد السـنتهم رغـم الاخـتلاط بـالامم الاجنبيـه وكـانوا مـا يزالـون يحتفظـون بفصـاحتهم وبلاغتهم وبيانهم إذ لم تؤثر التيارات الثقافية الاخرى على نطقهم ولغتهم والحق إن ألسنتهم لم تفسد بمجاورة الامم الاجنبية والاختلاط بشعوبها وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الافهام بحيث يستطيع متكلمهم ان يبلـغ ما يريد من استمالة الاسماع مع الديباجة الرائعة ورونق البديع٨١.

ـ حرية القول:

تـوفر للإنسـان العربـى فـى هذا العصـر حريـة القـول والتعبيـر عـن رايـة ولقد ضمن معاوية هذا الامر للناس حيث يقول إنا لا نحول بين الناس وبين السنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا لقد افسحت هذه الحرية المجال للخطباء يجولون ويصولون ويقولون ما يريدون.

ولعل من مظاهر هذه الحرية ظهور المعارضة السياسية والحزبية ولعل مما يدلنا على حرية القول والرأى ما يروى من ان اعرابيا شهد امام معاوية بشىء كرهه فقال له معاوية كذبت يا أعرابى فقال الاعرابى الكاذب والله متزمل فى ثيابك فتبسم معاوية وقال هذا جزاء من عجل:

ـ أنواع الخطابة:

تنوعت الخطابة فى العصر الأموى ما بين خطابة دينية وسياسية واجتماعية كما تبدو على الوجه الآتي

١ـ الخطابة الدينية:

كانت هذه الخطابة أشبة بشىء مفروض مكتوب على الناس فهم لابد يسمعونها فى جمعهم وأعيادهم ومناسباتهم الدينية ويسمعون خلالهاا المواعظ والعبر وقد كان فى هذا النوع حث للناس على الاستمساك بعروة دينهم وحبل ربهم وسنة نبيهم وحث على الخير والفضائل وتحذير من الشر والرذائل٨٢.

وكان القواد والولاة والخلفاء يؤمون الناس فى صلواتهم وقد شاع هذا النوع لدى الشيعة والخوارج ولدى جماعة من الوعاظ والقصاص الذين مزحوا خطبهم بالحديث عن الرسل والانبياء والامم الغابرة وبآيات من القرآن وأحاديث الرسول صلى الله علية وسلم لقد قام هذا النوع على الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والتنفير من الدنيا والتذكير بالآخرة بعيدا عن اهواء السياسة وتطاحن الاحزاب وكان خطباء هذا اللون يلتزمون الحمد فى اول الخطبة والصلاة على الرسول الكريم والاستشهاد بآيات من القرآن الكريم والاقتباس من احاديث النبى عليه السلام وكانت تعبيراتهم واضحة دقيقة وكلماتهم مؤثرة يرق لها الوجدان وتخفق لها الافئدة ومن الخطباء المشهورين فى هذا

النوع عمر بن العزيز والحسن البصرى وواصل بن عطاء وشداد بن اوس وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والاسود بن سريع

٢ـ الخطابة السياسية:

وجدت الاحزاب السياسية فى عصر بنى امية وتعقدت الحياة وانتشرت المذاهب فازدهرت الخطابة السياسية واشتهرت لدى هذه الاحزاب والفرق المعارضة للحكم الاموى واتخذت سلاحا يجول به ٨٣ الخطباء وميدانا فيه يصولون كما اتخذت وسيلة إلى نقد الخصوم وبيان النظرية السياسية للحزب واستخدمت فى استمالة الناس إلى الانضمام إلى الحزب ونتفيرهم من الاحزاب الاخرى لقد وهب خطباء كل حزب يدافعون عن مبادئة وينافحون ويدعون اليه ويبشرون بمبادئه ويروجون لآرائه ويقفون بالمرصاد لخطباء الاحزاب المعارضة ولقد غلب على هذا اللون من الخطابة ضخامة اللفظ وفخامة العبارة كما غلب عليه العنف والوعد والوعيد والتهديد والإسراف فى السب والشتم ومن اشهر الخطباء فى هذا المجال الحجاج الثقفى وزياد بن ابيه وزيد بن على والكميت بن زيد وقطرى بن الفجاءة وأبو حمزه الخارجى والحسين بن على وعمران بن حطان وعبد الله بن الزبير وغيرهم.

٢ـ الخطابة الاجتماعية:

وهى ما يطلق عليه البعض الخطابة الحفلية او خطابة المحافل وهى التى كانت تقال فى المناسبات الاجتماعية كالتهنئة او التعزية او الشكوى او الموعظة والصلح والزواج واكثر هذه المناسبات التى كانت تقال فيها هى وفود الوفود على بلاط الخلفاء او الولاة حيث ٨٤ فتح الخلفاء الامويون وولاتهم ابوابهم امام العرب ليؤكدوا لهم حسن نياتهم وليطمئنوا على ولاء هذه الوفود وحسن نيتها.

لقد أدى نمو السلطان العربى وانتقال حاضره الخلافة إلى دمشق واستقرار دعائم الملك واتساع رقعة البلاد الإسلامية إلى نمو هذا النوع وازدهاره وقد حاول خطباء هذا النوع ان يجودوا فى خطبهم ويوافروا لها ألوانا من الفصاحة وضروبا من البلاغة ليحظوا بإعجاب الخلفاء والولاة وكان من اشهر خطباء هذا النوع الاحنف بن قيس وعطاء بن ابى صيف الثقفى وزعة بن ضمرة <

ـ الرسائل:

كثرت الرسائل فى هذا العصر كثرة ملحوظة ولعل ذلك راجع إلى اتساع الدولة وكثرة الفتوح واختلاط العرب بغيرهم وراجع إلى المتغيرات الثقافية التى طرأت على المجتمع فلقد امتزجت الثقافة العربية بغيرها من الثقافات وراجع ايضا إلى حاجة المجتمع إلى ذلك النوع من الكتابة لتدوين الحقائق التاريخية او المشاعر الإنسانية والى وجود ديوان الرسائل الذى زخر بكثير من الكتاب والبلغاء ٨٥.

وإلى جانب كثرتها فقد تنوعت ما بين الدينية وسياسية واجتماعية:

١ـ الرسائل الدينية:

وهى التى يطلق عليها البعض الرسائل الوعظية ولقد شاع هذا النوع من الرسائل على نطاق واسع مع اخريات القرن الاول الهجرى وقد غلبت عليه النزعه الوعظية والميول الدينية والمجادلات المذهبية وكان كتاب هذا النوع من الخطباء المجادلين المتناظرين فى أمور الشرع ومسائل الدين ولذلك اصطبغت رسائلهم بالصور البيانية التى تلونت بها خطبهم وممن أدلى بدلوه فى هذا المجال الحسن البصرى وغيلان الدمشقى وكان عمر بن عبد العزيز يطلب من امثال هؤلاء الوعاظ ان يرسلوا اليه بعظات من لدنهم ومن ذلك انه ارسل إلى الحسن البصرى يطلب منه ان يرسل اليه وصفا للامام العادل فقال الحسن فى رسالته من ضمن ما يقول الامام العدل يا امير

المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله والامام العدل يا امير المؤمنين كالأب الحانى على ولده والإمام العدل يا امير المؤمنين الأم الشفيقة على ولدها وقد نهض كتاب الرسائل الدينية باللغة العربية وزودها بكثير من المعانى الدقيقة وكانت كلماتها مؤثرة على مشاعر القارىء والسامع لما لها من طلاوة وعذوبة ٨٦.

٢ـ الرسائل السياسية:

دعت الحاجة إلى هذا النوع فى ذلك العصر فلقد كان الخلفاء يكتبون مواثيقهم وعهودهم إلى من يتولى الخلافة بعدهم وكانوا يضطرون اليها ليبلغوا ولاتهم بأوامرهم وليردوا على رسائلهم وقد كثرت هذه الرسائل ايضا لدى الأحزاب السياسية المقاومة للدولة كما كثرت فى أيام الفتن الاضطرابات والثورات لقد كان لاتساع الدولة وانديا ح الفتوح الإسلامية وكثرة أعمال الخلفاء والولاة اكبر الاثر فى نمو هذا النوع من الرسائل وازدهاره والحق ان جماعة من الكتاب المصاقع قد قاموا على كتابة هذا النوع وكانوا فى قمة الفصاحة واوج البلاغة والبيان مثل الحجاج بن يوسف الثقفى وزياد بن ابية وقطرى بن الفجاءة وقبيصة بن ذؤيب ولم يكن للخلفاء فقط مجموعة من الكتاب القائمين على هذا الشأن بل اتخذ الولاه فى الامصار المتعددة لهم كتابا ايضا يدبجون رسائلهم ويحررونها وكذلك قواد الجيش الذين اتخذوا من بعض الكتاب قائمين على الرسائل يراسلون عنهم من يرغبون مراسلتهم وفى بطون كتب التاريخ والادب رسائل سياسية كثيرة ولعل من اشهر هذه الرسائل رسالتا تبودلتا بين الحجاج وقطرى بن الفجاءه ٨٧.

ويكفى ان نعود إلى كتاب الوزراء والكتاب والى كتاب البيان والتبين والامامة والسياسة وجمهرة رسائل العرب لنرى حشدا هائلا من هذه الرسائل.

٣ـ الرسائل الاجتماعية:

وهى التى يطلق عليها البعض الرسائل الاخوانيه ويمكن ان نقول انها رسائل ذاتيه شخصية دارت بين الناس بعضهم البعض فى المناسبات الاجتماعية والظروف الاخوانية وقد توزعتها اغراض شتى من تهنئة وعتاب واعتذار ومواساة وشفاعة ومصالحه وقد دعا اليها تفرق المسلمين فى الامصار وتباعدهم واحساسهم بالغربة والوحشة واحساسهم بالشوق والحنين إلى اوطانهم واخزانهم وذويهم والحق انه لم يصل الينا من هذا النوع قدر ما وصل الينا من الرسائل السياسية والدينيه لان اصحابها لم يعنوا بتسجيلها فهى امور ذاتية لا تهم المجتمع ككل ولم يعن بها المؤرخون لانها لا تنطق بالتاريخ واحداثه ولعل اهم ما وصل اينا منها رسالة عقال بن شبة إلى خالد القسرى يستشفعه فيها ٨٨.

ومن خلال هذه الرسائل نفهم ان اصحابها كانوا يهتمون بالالفاظ وتنميقها وبالصور البلاغية والمحسنات البديعية وتزويقها وتوازن الموسيقى

ـ تدوين الكتب /الكتابة:

ازدهرت الكتابة فى ذلك العصر بسبب المشكلات الكثيرة التى جدت على المجتمع ماديا وسياسيا واجتماعيا وبسبب تحضر العرب واختلاطهم بالدول الاجنبية والاطلاع على نظامها وثقافتها وقد تأثرت الكتابه بثلاث مؤثرات مهمة وأرفدتها ثلاثة منابع هى

١ـ المنبع الجاهلي:

وقد تمثل هذا المنبع المؤثر فى ايام العرب وتقاليدهم وشعرهم ونثرهم والحديث عن عاداتهم وقبائلهم ومضى كتاب هذا العصر يسجلون هذا المنبع وينهلون منه كثيرا

٢ـ المنبع الإسلامي:

وقد تمثل هذا المنبع المؤثر فى التاريخ الاسلامى والسيرة النبوية والمغازى الاسلاميه ايام الرسول ص والصحابه رضوان الله عليهم كما تمثل ايضا فيما دار بين الاحزاب من مساجلات ومناظرات سياسية وعقدية وغير ذلك٨٩.

٣ـ المنبع الأجنبي:

وقد تمثل هذا المنبع المؤثر فى الاطلاع إلى نظم الامم الاجنبية وشئونها واحوالها وتمثل ايضا فيما دار بين العرب هؤلاء الاجانب من مناظرات ومساجلات خاصة فيما دار بينهم وبين اليهود والنصارى لهذه الاسباب وتلك المؤثرات بدأ التأليف ودونت الكتب وقد توزعت الكتابة ما بين كتابة دينيه وكتابة تاريخية وكانت الكتابة الدينية تعنى بالفقة والحديث والسنه والتشريع وفى هذا العصر نجد عمر بن عبد العزيز يأمر كتابه بتدوينه ابن شهاب الزهرى ونجد الشيعة يهتمون بالفقة وكتابته وخاصة فتاوى على بن ابى طالب وكان من اوائل من سجل ذلك سليم بن قيس ومما يجب ان يلاحظ ان الكتابة الدينية وتدوين ما يتصل بمسائل الفقة وامور التشريع كان يفوق الكتابة التاريخية فقد اهتم العرب فى العصر الاموى اهتماما بالغا بهذه الناحيه حيث عنوا بقرآنهم وتفسيره وحديثهم وروايته وفقههم ونشره وكانوا حريصين على تدوين كل ما يسمعونه فى الناحية الدينيه ولكن ليس معنى ذلك انهم لم يهتموا بالجانب التاريخى واما الكتابة التاريخية فقد عنيت بمغازى النبى ص وكان أبان بن عثمان اول من دون ذلك٩٠.

وعنيت الكتابة التاريخية ايضا بتاريخ البلدان وبتاريخ القبائل وانسابها وايامها واحداث التاريخ فى العصر الاموى ٩١.

ـ عبد الحميد الكاتب

وفن الكتابة:

ـ التعريف بالكاتب:

هو أبو غالب عبد الحميد بن سعد وقيل ابن سعيد مولى العلاء بن وهب من بنى عامر بن لؤى بن غالب القرشى والحق اننا لا نعلم على وجه اليقين سنه ميلاده ولكننا نعلم انه توفى سنه ١٣٢هـ وهى السنة التى دالت فيها الدولة الاموية حين فر إلى مصر من وجه العباسيين مع مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين وقد اختلف المؤرخون وكتاب التراجم فى اصله فذهب بعضهم مثل الإصطخرى إلى انه فارسى الاصل حيث يقول عندما تحدث عن طبقات الناس فى فارس واما من صلح للدواوين من الفرس من الكتاب والعمال والادباء فإن منهم عبد الحميد بن يحيى وكان له فى بنى امية ولاء ينسب اليهم وكان من كتابته واستقلاله ما اغنى عن ذكره لاشتهاره ٩٢.

ويذهب صاحب الفهرست إلى ان عبد الحميد كان من اهل الشام ويذهب ابن خلكان إلى انه عراقى الاصل من اهل الانبار وانه سكن الرقة ويحاول البعض التوفيق بين هذه الآراء فيذهب إلى ان صحابنا اصله فارسى من الانبار ثم انتقل به ذووه إلى الرقة فالشام وهنا نشأ ونبع ولعل هذا الرأى هو الذى يمكن ان يقبل عقلا أقبل عبد الحميد فى بداية حياته على الدراسة فأخذ باسباب الثقافة العربية واغترف من فيض العلوم الاسلاميه فتخرج فى علقم زمانه من قراءة القرآن ورواية الشعر والإلمام بالحساب والاخبار بالإضافة إلى الثقافة الفرسية والحق ان تلك العلوم وهاتيك الثقافات قد هيأت عبد الحميد لمستقبل مزهر مشرق وقد عمل فى بداية حياته معلما للصبية فى كتاتيب القرى التى كان ينتقل بينها حتى التقى بأستاذ له يسمى سالما وكان سالم هذا مولى لهشام بن عبد الملك ٩٣.

وتوثقت العلاقة اكثر بين عبد الحميد واستاذه حينما تزوج التلميذ بابنة استاذه ومازال به استاذ حتى خرجه كاتبا يبارى وتعرف عبد الحميد فيما بعد على مروان بن

محمد حينما كان مروان واليا على ارمينية وتوثقت الصلة بينهما حينما آلت الخلافة إلى مروان حيث صار عبد الحميد كاتبه المفضل ورئيسا لديوان الرسائل فى عصره وظل عبد الحميد وفيا لمروان بن محمد حتى مات دونه سنه ١٣٢ فى بوصير بمصر وإن كان ثمة روايته تذهب إلى ان العباسيين قد قبضوا عليه وهو مختبىء عند صديقه ابن المقفع وهذه الرواية لا يقبلها الدارسون كثيرا فلقد كان من عقبه بنو المهاجر فى مصر وكانوا يكتبون ومنهم من كتب لاحمد بن طولون عرف عبد الحميد بصفات أخلاقيه حميدة وخلال طيبة عالية اهمها المروءه وكرم النفس وحسن الرأى ورجاحة العقل والطموح والذكاء والوفاء

ـــ مكانته الأدبية:

احتل عبد الحميد الكاتب مكانه ادبية مرموقة فلقد كان رئيس ديوان الإنشاء على عهد مروان بن محمد ولقب بعبد الحميد الأكبر ٩٤.

وقد أطلق الجاحظ عليه هذا اللقب تمييزا له عن عبد الحميد الاصغر كاتب سليمان بن عبد الملك والحق انه ابلغ الكتاب فى عصره وابرعهم فى الكتابه وقد نال شهره واسعه وصيتا مدويا ومما يدلنا على مكانته أقوال المؤرخين والمترجمين والنقاد:

١ـ يقول الصولى ما تمنيت كلام احد من الكتاب قط ان يكون لى مثل لامه.

٢ـ يقول البطرى كان عبد الحميد بن يحيى من البلاغة فى مكان امين<

٣ـ يقول احمد بن يوسف فى رسائل عبد الحميد الفاظ محككه وتجارب محنكه.

٤ـ يقول القلقشندى عن بنى امية وكان ممن اشتهر من كتابهم من البلاغة وقوة الملكه فى الكتابة حتى سار ذكره فى الآفاق وصار يضرب به المثل على مر الأزمان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفائهم ٩٥.

٥ـ يقول المسعودى صاحب الرسائل والبلاغات وهو اول من اطال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الكتب واستعملها الناس بعده .

٦ـ يقول النديم وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزما وهو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل واحد دهره ولرسائله مجموع نحو ألف ورقة.

٧ـ يقول الإصطخرى وكان من كتابته واستقبلاله ما اغنى عن ذكره لاشتهاره.

٨ـ يقول ابو هلال العسكرى ومن عرف ترتيب المعانى واستعمال الالفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة اخرى تهيأ له فيها من صنعه الكلام مثل الكتابه التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحولها إلى لسان العربى فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابته المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال٩٦.

٩ـ كان أبو جعفر المنصور كثيرا ما يقول بعد إفضاء الامر إلى بنى عباس غلبنا بنو مروان بثلاثة أشياء بالحجاج وبعبد الحميد بن يحيى والمؤذن البعلبكي.

١٠ـ يقول ابن عبد ربه كان عبد الحميد اول من فتق اكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر.

١١ـ يقول الثعالبى فتحت الكتابه بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

١٢ـ يقول ابن خاكان ان فى الكتابه وفى كل فن من العلم والادب إماما.

١٣ـ يقول البحترى فى حقه وتفننت فى البلاغة حتى عطل الناس فن عبد الحميد

١٤ـ يقول ابن الرومى فى حقه ايضا لو ان عبد الحميد اليوم شاهده لكان بين يديه مذعنا وسنا.

١٥ـ يقول الزركلي عالم بالآدب من ائمة الكتاب.

١٦ـ يقول دكتور عبد الحكيم بلبع إن الرجل ذو مكانه ملحوظه فى تاريخ النثر العربى وانه ذو اثر عميق فى تطور الكتابة الفنية ٩٧ ، وانه قد سن طريقه جديده سار على نهجها من جاء بعده من الكتاب.

١٧ـ يقول دكتور حسين نصار اما عبد الحميد فكان القمة التى وصلت اليها الكتابة الاموية واخذت عندها صورتها الفنيه وعندما جاء الكتاب من بعده استمدوا تقاليدهم الكتابيه وقواعدهم الفنية من هذا العلم البارز .

١٨ـ اما محمود مصطفى فيجعله شيخ الكتاب وسيدهم وانه استطاع ان يفعل ما لم يفعله الاوائل .

١٩ـ يقول دكتور مصطفى الشكعة لقد جعل عبد الحميد من نفسه إماما للكتاب وهم قبلوا ذلك منه لانه وضع لهم دستور حياتهم الادبية واسس تقاليدهم الفنيه.

٢٠ـ واما دكتور شوقى ضيف فيقول عبد الحميد ابلغ تاب الدواوين فى العصر الاموى واشهرهم وقد ضربت ببلاغته الامثال والحق انه القمة التى وصلت اليها الكتابة الفنية فى العصر الاموى إذ كان زعيم البلغاء فى عصره غير مدافع ويؤكد دكتور شوقى ضيف على ذلك مرة اخرى فى كتابه العصر الاسلامى قائلا وعبد الحميد بدون ريب ابلغ كتاب هذا العصر وابرعهم٩٩ .

ـــ طريقة عبد الحميد وفن الكتابة عنده :

يجمع المؤرخون وكتاب التراجم على ان عبد الحميد الكاتب صاحب فن أدبى رفيع وله طريقة عظيمه فى الكتابة وان النثر قد تطور على يديه تطورا كبيرا فهو صاحب الطريقة الانيقة والكاتب الوصاف على الحقيقة استجمع شروط البلاغة فعد

زعيم المبدعيين بلا منازع وأمير المنشئين غير مدافع لقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل ادبية حقيقية غاية فى الفصاحة والبلاغة وطالت التحميدات فى اوائل الكتب وكررها فى فصولها وجعل للكتابه رسوما فى البدء والختام وجعل للإطناب مواضع وللإيجاز مواضع اخرى فكان بذلك شيخ كتاب الرسائل على الاطلاق وقد بلغت رسائله الف ورقة كما اشار إلى ذلك النديم فى الفهرست والقلقشندى فى صحبه والحق ان لعبد الحميد طريقة خاصة فى الكتابة يمكن ان نوجز اهم خصائصها فيما يلي:

١ـ يذهب الكثيرون إلى ان عبد الحميد هو اول من اطال التحميدات فى كتبه فلقد كانت التحميدات فى الكتب عبارة واحده ١٠٠.

أما عبد الحميد فقد توسع فيها وصاغها فى عبارات طويله ولم يقتصر ذلك الامر على بدايه الرسالة بل كان يكررها فى فصولها ويذهب البعض إلى انه كان متأثرا فى ذلك بواصل بن عطاء وذلك كما نقرا فى قوله الحمد لله العلى مكانه المنير برهانه العزيز وسلطانه الثابته كلماته الشافيه آياته النافذ قضاؤه الصادق وعده الذى قدر على خلقه بملكه وعز فى سماواته بعظمته ودبر الامور بعلمه وقدرها بحكمه.

٢ـ رسوم الكتابة.

جعل عبد الحميد للكتابه رسوما معينه ونظما خاصة تراعى فى البدء والختام وإن ان بعض هذه الرسوم موجودا من قبل لكن عبد الحميد هو الذى جعل لها اسسا وشروطا فهو على سبيل المثال حينما يبدا فيه بعد البسمله بقوله هذا عهد والثانى يبدا بالحمد ابتهالا لله وكانيخاطب المسلم بغير ما يخطب به غير المسلم فالاول يحمد فيه الله والثانى يقول فيه سلام على من اتبع الهدى وكان عبد الحميد قد اخترع التعقيب بالحمد لله بعد البسمله مفصولا عنها بقوله اما بعد بسم الله اما بعد فالحمد

لله وكان يختم رسائله غالبا بذكر نعمة الله او بآيات من القرآن الكريم او عبارات السلام ١٠١.

٣ـ الإطناب والتبسيط والايجاز:

جعل عبد الحميد للاطناب مواضع وللايجاز مواضع كما اشرنا من قبل وكان ذلك من أهم خصائص الكتابة عنده فهو يستخدم الاطناب فى الحديث عن الفتوحات وفى تفخيم امر الملوك والحث على التهيؤ للعدو وفى إثارة الحمية وفى الوعد والوعيد وكان يلجأ للايجاز فى بعض الاحيان وذلك حينما يكتب فى امر لا يراد إعلانه مثل الحديث عن هزيمه او تغيير حم او نظام او تكليف رعية او ان تكون الرسالة مبعوثه إلى وال او قائد فى امر او نهي

٤ـ توازن الجمل والعبارات

وهى مزية من مزايا كتاباته فهو فيها كأنه يزن عباراته وزنا تتكافأ فيه كفتا الميزان ومن ذلك قوله ان تملك امورك بالقصد وتدارى جندك بالإحسان وقوله تدارى حقدك بالإنصاف وتذلل نفسك بالعدل ففى عباراته جوده التقسيم ودقة المنطق والأجزاء المتميزه والفقر المتناسقة التى لا يظهر فيها اى نبو ولا يداخلها أدنى شىء من استطراد او تشعب ١٠٢، ولعل ذلك راجع إلى انه كان ذا عقل منطقى متسلسل الأفكار منتظم الخطوات .

ـ خصائص أخرى:

بالإضافة إلى ما سبق فقد تميزت الكتابة عند عبد الحميد بالعبارات الانيقة والالفاظ المنتقاه الرشيقة التى لا غرابة فيها ولا تقعر كما تميزت بالمعانى الغزيرة المتدفقة والافكار المحكمه المرتبة وبوجود الترادف الذى يفضى إلى الازدواج مع عدم التكلف فى السجع ووجود صور بيانية بديعة خلابة وشىء من الطباق والمقابلة وقد

أحدث ذلك تنغيمات صوتيه وتنويعات إيقاعية رائعة وقد جاء ذلك كله فى فواصل قصيرة غالبا وفى اسلوب واضح لا غموض فيه ولا التواء ويلاحظ انه كان يكثر من استعمال الحال كثرة ملحوظة وكان يتأنق فى الفاظه ويتخيرها جزلة فخمة كما كان يكثر من بعض الصيغ الخاصة فى الجمل المتجاورة مثل التمييز والمفعول به المقدم واسم الفاعل.

ـ والخلاصة:

أن عبد الحميد بهذه الخصائص الفنيه فى كتاباته جعل من نفسه إماما للكتاب وسيدا لهم ١٠٣.

فلقد استطاع ان يفك قيود الكتابة وان يجعلها تجرى بسرعة بعد تعثرها وان يطيل من انفاسها المتقطعة ويمدنا بالسلاسة والعذوبه والتدفق فى المعانى وتنوع الاساليب مما جعلها تجرى كالماء العذب الزلال على شفاه الظمأى واستطاع ان يضع لها دستورها ورسومها ويؤسس تقاليدها ونظمها التى انتهجها الكتاب فيما بعد ولم يستطيعون الخلاص منها لفترات طويله من الزمن وبذلك بلغ عبد الحميد فى الكتابة غاية الغايات واوفى بها إلى قمة الرقى والإبداع الفنى وكان نقطة تحول فى حياة النثر الفنى وأنه قد بلغ به إلى القمة فى عصره ومن اجل ذلك كله بايع النقاد ومؤرخو الادب عبد الحميد اميرا على عرش الكتابة العربية حتى قال عنه الثعالبى بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ١٠٤ .

ـ ثانيا النصوص:

قال تعالى:

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين الذين ينفقون اموالهم فى السرآء والضرآء والكظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب

المحسنين والذين إذا فعلوا فحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم اجر العاملين قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف ان عقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنزا وانتم الاعلون ان منتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين امنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظلمين وليمحص الله الذين امنوا ويمحق الكفرين ام حسبتم ان تدخلوا الجنه ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) من سورة آل عمران ١٣٣-١٤٢..

ـ معانى المفردات:

السراء والضراء – اليسر والعسر الكاظمين الغيظ –الحابسين غيظهم فى قلوبهم حلما منهم وصبرا على الاذى مع القدرة على الانتقام فاحشة –معصية كبيرة متناهية فى القبح خلت –مضت وانتقضت ذكروا الله –اى ذكروا عقاب الله فرجعوا عن الذنوب وتابوا سنن–وقائع فى الامم المكذبة لاتهنوا–لا تضعفوا فى قتال اعدائكم القرح–الجرح والمقصود جرح يوم احد قرح مثله –اى يوم بدر نداولها –نصرفها بأحوال مختلفة ليمحص–ليصفى ويطهر الذين آمنوا من الذنوب يمحق–يهلك ويستأصل حسبتهم –ظننتم واعتقدتم .

ـ ما ترشد إليه الآيات:

١ـ فى الآيات حث على الإسراع إلى العمل الصالح وقد ذكر الله عز وجل النتيجة ولم يذكر السبب إغراء للمؤمنين على ان يسلكوا الاعمال الصالحة ليحصلوا على تلك النتيجة العظيمة.

٢ـ من وسائل الإغراء ذكر الجنة بمثل هذا الاتساع العظيم وقد اكتفى الله عز وجل بذكر عرض الجنة ولم يذكر طولها دلالة على عظم امرها واتساعها الكبير ١٠٩.

٣ـ تذكر الآيات ان هذه الجنه قد جهزت بكل شيء للمتقين وهذا يدعو المؤمن إلى ان يتقى الله فى كل عمل حتى يدخل هذه الجنة المجهزه بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٤ـ أوضح الله عز وجل صفات المتقين فيما يلي:

أـ انهم ينفقون فى السراء والضراء اى فى كل حالة من حالات المادية فهم ينفقون حتى فى حالة العسر .

ب ـ أنهم مستغفرون لذنوبهم ذاكرون الله عز وجل اذا ما ارتكبوا اسما كبيرا او صغيرا .

جـ ـ لا يصرون على فعل الفاحشة لانهم يعلمون الصواب ويعرفون الخطأ.

د ـ يملكون انفسهم فى لحظة الغضب فهم لا يتملكهم الطيش والنزق بل يستطيعون ان يتحكمون فى انفسهم.

هـ ـ انهم يعفون عن من يسيء اليهم ولا يحملون له غلا ولا يضمرون له شرا

٥ ـ تؤكد الآيات على ثواب المتقين بان لهم جنات عند ربهم وان الله غفور يعفوا عن السيئات.

٦ـ تدعوا الايات المؤمنين إلى ان يتفكروا ويتدبروا فى سنن الله وفى الخلق تلك السنن التى لا تختلف ابدا وتدعوه إلى التأمل فى تاريخ الامم السابقة وسير السالفين وهذه السنه هي ١١٠، أن من كذب بوعد الله وآياته فمصيره الهلاك والعذاب

٧ــ تشير الآيات إلى ما اصاب المسلمين فى واقعة احد وتدعوهم إلى عدم الاستكانه والاستسلام لليأس والحزن وتطمئنهم إلى ما وعدهم الله بهم من النصر فهم فى النهاية الفائزون

٨ــ تخفف الآيات جراحات المسلمين وتبين ان الايام دول وان الحروب سجال فكما اصابهم نوع من الهزيمه فى احد فقد اصاب المشركين مثل ذلك فى بدر ولكن المهم الاستعداد للمعارك القادمة

٩ــ تين الايات الحكمه من ذلك القرح الذى مس المسلمين وتلك الحكمه هى ان الله عز وجل اراد ان يختبرهم ويبلوهم وليكشف امورهم هل يصبرون ام يجزعون وليعلم المؤمن الحق من غير المؤمن وليظهر الايمان الصادق فى من يضحى بنفسه ويستشهد فى سبيل الله حتى يمحق الله بذلك الكافرين محقا وليظهر حقيقة المجاهلين وليبين لهم انه لا بد من الجهاد والصبر والا فكيف يدخلون الجنه بدون مجاهده وصبر وبلاء فى سبيل الله عز وجل ١١١.

ــ نص قرآني:

قال الله تعالى:

(يايها اللذين امنوا اذا جائكم فاسق بنبأ فتبينوا عسى ان تصيبوا قوما بجهاله فتصبحوا على ما فعلتم نادمين واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمه والله عليم حكيم وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فأن بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيىء إلى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين انما المؤمنون اخوه فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون يا ايها اللذين امنوا لا

يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابذوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فؤلئك هم الظالمون يا ايها اللذين امنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعد الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) ١١٢.

ـ معانى المفردات:

تبينوا –تثبتوا تصيبوا –تؤذوا بجهاله –بغير علم –لعتم لاثمتم بغت –اعتدت تفىء – ترجع اقسطوا –اعدلوا المقسطين –العادليين لايسخر –لا يهزء لاتلمزوا انفسكم– لايطعن بعضكم بعضا لاتنابزوا بالالقاب –لاتتداعوا بالالقاب المستكره الظن –ظن السوء باهل الخير لا تجسسوا –لا تتبعوا عورات المسلمين لايغتب–لايذكر احدكم الاخر بما يكره .

ـ مناسبة نزول الايات :

نزلت الايه الولى فى الوليد بن عقبة بن ابى معيط وكان رسول الله قد ارسله إلى بنى المسطلق بعد اسلامهم ليصدقهم فتلقوه بالهديه ليكرموه فرجع إلى رسول الله ص فقال ان بنى المستلق قد جمعت لتقاتلك فهم رسول الله ان يغزوهم فبينما هم فى ذلك قدم وفدهم على رسول الله بغير ما قال الوليد وفى روايه اخرى انه اخبر النبى ص بأنهم ارتدوا فبعث الرسول خالد بن الوليد ان يتثبت ولا يعجل فانطلق خالد حتى ١١٣أتاهم فاخبروه انهم متمسكون بالاسلام وانهم ما قابلوا الوليد بن عقبة فسمى الوليد فاسقا اى كاذبًا.

وأما الايه لا يسخر قوم من قوم فقد نزلت بسبب سخريه بعض ازواج النبى من ام سلمه فلقد عيرنها بالقصر وقيل بانها نزلت فى صفيه بنت حى ابن اخطب فلقد شكت إلى رسول الله بان النساء يعيرنها ويقولن لها يا يهوديه فقال رسول الله ص هلا قولت ان ابى هارون وان عمى موسى وان زوجى محمد فأنزل الله هذه الايه.

ـ ما ترشد اليه الايات:

١ـ ضرورة التثبت من صحه الاخبار لان عدم التثبت من ذلك يؤدى إلى اضرار بالغة فقد نتهم اناسا بفعل اشياء لم يفعلوها فنظلمهم ثم نندم على ذلك فيما بعد.

٢ـ وجوب طاعة الرسول ص لان طاعته من طاعة الله .

٣ـ توضح الايات فضل الله على المسلمين اذا من عليهم بالايمان وتفضل عليهم بالاسلام وحببه اليهم وكره اليهم الكره والفسق والعصيان.

٤ـ تدعوا الايات إلى الاصلاح بين المسلمين والا تقف جماعة المسلمين مكتوفة الايدى ان رأت جماعتين متخاصمتين وعلى جماعة المسلمين ان تضرب بشدة على يد الفئه الباغيه الطاغيه ان تمادت فى ظلمها وغيها ١١٤.

٥ـ تحث الايات على عدم السخريه من الناس فالربما يكون من نسخر منهم افضل عند الله منا .

٦ـ تدعوا الايات على عدم اللمز والتنابز بالالقاب لان ذلك يحزفى النفس ويؤلم ومن يفعل ذلك فقد اعتبرته الايات ظالما وعليه ان يسرع بالتوبه عسى الله ان يقبله .

٧ـ علينا ان نتجنب كثيرا من الظن بالناس والا نتجسس على احد منهم والا يغتاب بعضنا بعضا وقد صور الله الغيبه باكل لحم الميت تنفيرا لنا منها وتوضيحا لبشاعتها .

٨ـ تبين الآيات ان جميع الناس اصلهم واحد ولكن حكمه الله اقتضت ان نكون اممًا مختلفة وشعوبا متباينه لعلل كثيره اهمها التعارف .

٩ـ توضيح الايات ان مقياس التفاضل بين الناس هو التقوى فلا احد افضل من احد عند الله الا بهذا المعيار١١٥.

ـــ نص قرآني

قال تعالى:

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمه الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفره من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم اياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم امه يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر والئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جائهم البينات والئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما اللذين اسودة وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون واما اللذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون تلك ايات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين) سورة ال عمران ١٠٣-١٠٨

ـــ معانى المفردات:

اعتصموا –تمسكوا بحبل الله –دين الله وهو الاسلام وقد يقصد به القرآن الكريم بقول رسول الله القرآن حبل الله المتين لاتفرقوا–لاتختلفوا كما اختلفتم فى الجاهليه يحارب بعضكم بعضا ١١٦.

الف –جمع ووفق فاصبحتم –فصرتم شفا –حرف وحافه انقذكم نجاكم كذلك –مثل ذلك التبيين الواضح اياته–دلائله وعلامات قدرته امتا –جماعه الخير –كل ما فيه فائده ونفع للناس والمقصود به الاسلام المعروف–الخير او كل فعل حسن المنكر–الشر كل فعل قبيح المفلحون –الفائزون الناجون البينات–الايات الواضحه يوم تبيض وجوه–كنايه عن الفرح والبهجه والفوز تسود–كناية عن الخوف والكآبه والخسران اللذين اسودت وجوههم–الكفار اللذين ابيض وجوههم –المؤمنون ففى رحمة الله –فى جنته خالدون –باقون دائما لا يرحلون عنها ولا يموتون نتلوها–نقصها ونحكيها

ـ مناسبة النزول:

ان رجلا من اليهود يقال له شاس بن قيس مر على نفر من الاوس والخزرج يتحدثون فغاظه ما راى من تألقهم بعد العداوه فأمر شابا معه من يهود ان يجلس بينهم فيذكرهم يوم بعاث ففعل فتنازعوا وغضب لفريقان وتواثبوا للقتال فبلغ ذلك رسول الله ص فجاء حتى وعظهم واصلح بينهم فسمعوا واطاعوا والقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وكان منا قاله الرسول يا معشر المسلمين اتدعون الجاهليه وانا بين اظهركم بعد ان اكرمكم الله بالاسلام وقطع به عنكم امر ١١٧ الجاهلية والف بينكم فنزلت الايه واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .

ـ ما ترشد اليه الايات:

١ـ الامر من العلى القدير بأن نستمسك بتعاليم الدين وشريعته الغراء وكتابة العظيم فليس هناك اعظم من ذلك وهو سبحانه وتعالى فى الوقت نفسه ينهانا عن الفرقة

والاختلاف اذ من المعروف ان التفريق ضعف والاتحاد قوة فما اتحد قوم الا عزوا وسادوا وما تفرقوا الا ذلوا وضعفوا .

٢ـ علينا ان نذكر دائما ما من الله به علينا من النعم ومنها النعمه الكبرى وهى نعمة الوحدة التى جمع الله به علينا من النعم ومنها النعمه الكبرى وهى نعمة الوحده التى جمع الله بها العرب المشتتين المتنافرين المختلفين ولقد جمعهم على الدين واحد فصاروا إخوانا متحابين متراحمين متناصحين بعن العداوة والفرقة

٣ـ يذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بانهم قبل اسلامهم انوا على وشك الوقوع فى النار وذلك بسبب الكفر ولكنه نجاهم من ذلك بالاسلام وانقذهم بالايمان به سبحانه وتعالى .

٤ـ يوضح الله للمسلمين دلالات ظاهرة وآيات باهرة وحججا واضحه على قدرته ليهتدوا بها إلى الطريق المستقيم طريق الخير ١١٨.

٥ـ لكى يستمر المؤمنون على طريق الحق ولكى يكونوا دائما مهتدين فلابد من وجود جماعة تدعو إلى الخير دائما وتامر به وتأمر بما فيه صلاح الناس فى دينهم ودنياهم وان تقومهذه الجماعة بإرشاد الناس إلى الحق والخير والبر وتنهاهم عن الشر وتخوفهم منه حتى لا يزلوا فالإنسان عامة محتاج إلى مثل هذه الطائفة الآمرة بالخير الناهية عن الشر ويذكر الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء الدعاة المصلحين فائزون مفلحو لهم الثواب الجزيل عنده عز وجل لأنهم جمعوا الناس وحببوهم فى الإيمان ودعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ولأنهم هم انفسهم القدوة الصالحة فى المجتمع .

٦ـ يحذر الله سبحانه وتعالى من الفرقة التى عمت بين الامم السالفة وينبذ الاختلاف ويدعو إلى الأ يكون المؤمنون كالأقوام السابقة التى تفرقت بعدما جاءت الآيات

والدلائل على صدق الدعوة الموجهة إليهم فعاندوا واختلفوا فباءوا بغضب من الله وعذاب شديد يوم القيامة.

٧ـ يوضح الله عز وجل ان الناس فى يوم القيامة صنفان صنف تشرق وجوههم بالبهجة والسرور وتمسكهم بدينهم وتوحدهم حول هذا الدين وهؤلاء مصيرهم الرحمة والجنة خالدون فيها ابدا وصنف يظللهم السواد والكآبة لكفرهم وفرقتهم وهؤلاء حق عليهم العذاب الأليم جزاء وفاقا بما كفروا وصدوا عن سبيل الله ١١٩.

٨ـ يشير الله عز وجل فى ختام الآيات إلى عظيم دلائله وبراهينه التى لا شبهة فيها وانه عادل لا يظلم الناس مثقال ذرة ولكن أنفسهم يظلمون وخلاصة ذلك كله أن الله عز وجل يريد أن يوضح لنا أثر الإسلام وفضله العظيم العميم فى إنقاذ الامة العربية بل والبشرية جمعاء من التناحر والتطاحن وهو يدعوهم إلى الاتحاد وعدم الفرقة ويبين ان الاتحاد قوة والتفرق ضعف ويذكرهم بوجوب شكر الله على نعمه ويحث على وجوب وجود دعاة مصلحين وأئمة عاملين متخصصين فى ذلك يوجهون الناس إلى الرشاد والاصلاح والخير والفلاح ويبعدونهم عن الغى والفساد وان كل إنسان بعد ذلك مجزى بعلمه يوم القيامة وان الله لايظلم مثقال ذرة 120.

ـ نص قرآني:

قال تعالى:

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دآبة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى

حميد وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير وإن جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات او فى الارض يأت بها الله إن الله لطيف خبير يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الامور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن انكر الاصوات لصوت الحمير ألم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)

من سورة لقمان (٨-٢٠)

ـ معانى المفردات:

الرواسى الجبال الثابته تميد تتحرك وتضطرب الدابة كل ما يدب على الارض زوج بخلاف الفرد وكل شيئين اقترن أحدهما بالآخر وكل شكل له نقيض ضلال بالباطل كفر فقد إيمانه حميد جدير بأن يحمد الفصال الفطام جاهداك اجبراك معروف فعل الخير أناب تاب ورجع الخردل نبات عشبى له بذور تسمى الواحدة خردلة وهى صغيرة جدا العزم الجد والالتزام بالامر تصعر تصرف وجهك عن الناس تكبرا مرحا اختيالا وكبرا وتبخترا اقصد كن معتدلا اغضض اخفض سخر هيأ وذلل وجعله ميسورا أسبغ أكمل وأتم يجادله يناقشه.

ـ القيم والاراشادات:

١ـ الإيمان بالله والاعمال اصالحة من أهم اسباب دخول الجنه.

٢ـ تدعونا الآيات إلى النظر فى الكون والحياة والوجود والتامل فى نظام السماء المرفوعه بغير عمد والارض الموضوعه والجبال التى تثبت جوانب الارض والمخلوقات المنتشرة التى تدل كلها ١٢٢على عظمة الخالق العظيم وهى تعزز إيماننا وتقوية وتدعونا إلى الاعتراف بفضله سبحانه وتعالى .

ـ تدعونا الايات إلى:

أ ـ التوحيد بالله عزوجل وعدم الإشتراك به..

ب ـ الإحسان إلى الوالدين وبرهما وخاصة الام التى تتحمل كثيرا من المشاق.

جـ ـ ضرورة طاعة الوالدين فى كل شىء الا الشرك بالله او معصيته سبحانه وتعالى كما تدعونا إلى معاملتهما معامله كريمه .

د ـ ضرورة الايمان بالله الذى يعلم كل شىء حتى ادق واخفى الاسرار

هـ ـ إقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على ما يصيبنا.

و ـ النهى عن التكبر والخيلاء وضرورة التواضع والاعتدال فى المشي.

ز ـ النهى عن رفع الصوت حتى لا يشتبه ذلك بأصوات الحمير فهى أنكر الاصوات

٤ـ تصور الايات روعة خلق السموات والارض وما تفضل به ربنا علينا من نعم ظاهرة وباطنه وتسخير كل هذه النعم لنا ١٢٣

٥ـ علينا ان نبتعد عن المجالات العقيمة والمناظرات التى لا طائل من ورائها لان ثمة إناسا يجادلون فى الله بغير علم ولا هداية ولا دليل ولا كتاب ١٢٤.

ـ حديث نبوى شريف:

ـ الأعمال الصالحة من أسباب دخول الجنة:

ـ الحديث:

عن معاذ بن جبل صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله اخبرنى بعمل يدخلنى الجنه ويباعدنى عن النار قال لقد سالت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال له الا ادلك على ابواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل فى جوف الليل ثم تلا تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ يعملون ثم قال الا اخبرك براس الامر .

الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ثم قال الا اخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه ثم قال كف عليك هذا قلت يا بنى الله وإنا لمؤخذون بما نتكلم به قال ثكلتك امك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم او قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٢٥.

ـ المفردات:

عظيم امر مهم يسير سهل جنة وقاية وحمايه تتجافى تتباعد سنامه السنام اعلى مكان فى الجمل ملاك قوم الامر وجوهره ثكلتك فقدتك يكب يرمى ويلقى حصائد الألسنة الكلام .

ـ القيم والإرشادات:

١ـ قول معاذ أخبرنى بعمل يدل على اهتمام معاذ بالاعمال الصالحة وفى هذا دليل على ان الاعمال سبب من اسباب دخول الجنة.

٢ـ قول الرسول صلى الله عليه وسلم سألت عن عظيم دليل على ان دخول الجنه والنجاه من النار امر عظيم .

٣ـ قوله انه ليسير إشارة إلى ان التوفيق كله بيد الله

٤ـ بدأ الرسول ص بترتيب الامور حسب الاهمية فأولها التوحيد ثم العبادات ثم أبواب الخير من النوافل

٥ـ أهمية صوم التطوع فهو يحمى صاحبه من المعاصى فى الدنيا ولذلك شبه الرسول ص بالمجن الذى يقى المقاتل من الحرب

٦ـ جعل الرسول ص صلاة الرجل فى جوف الليل باب من ابواب الخير اشارة إلى اهمية ذلك الوقت فهو افضل اوقات التهجد ولان فيه بعدا عن النفاق والرياء ولان النفس البشرية يصعب عليها القيام بذلك الوقت ولان الله عز وجل يتجلى عن عباده حين ذاك

٧ـ أهمية الجهاد ولذلك جعله دروة سنام الاسلام فهو افضل الاعمال بعض الفرائض١٢٦.

٨ـ خطورة اللسان ولذا دعا عليه السلام إلى كف اللسان عن الأذى والتحكم فيه لان كف اللسان وحبسه عن السوء هو اصل الخير كله فمن ملك عليه لسانه فقد ملك امره وظاهر ذلك ان اكثر ما يدخل الناس به النار اللسان .

٩ـ يمثل لنا هذا الحديث النبوى الشريف افضل الطرق التربويه السليمه فى التعلم وهى عمليه السؤال والجواب ولذلك نرى ان الرسول ص يسأل بقوله الا وفى ذلك حس على التعلم وشد لانتباههم السامع تشويق لهم .

ـ حديث نبوى شريف:

فى فضل قراءة القرآن

ـ الحديث:

عن ابى موسى الاشعرى عن النبى ص قال مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الاترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريحة وطعمها مر

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ـ المفردات:

الأترج نوع من أنواع الفاكهة متوسط الحجم واحدته أترجة، الريحان كل نبت طيب الرائحة واحدته ريحانة والمعروف منه عند العرب الأسل ويقال ان رائحته تقتل الجراثيم ، الحنظل نبات يمتد على الارض كالبطيخ وثمره يشبه ثمر البطيخ لكنه اصغر منه بكثير ويضرب بيه المثل فى المراره.

ـ ضوء على الحديث:

مثل الرسول ص فى هذا الحديث الشريف لأربعة اصناف من الناس لهم صله بالقرآن الكريم باعتباره كتابا يؤمنون به وينتمون إليه وهم على النحو التالي ١٢٨.

١ـ شخص ملئ الإيمان قلبه فجعل لنفسه حظا من القرآن يتلوه أناء الليل وأطراف النهار فى قيامه وجلوسه ومشيته وكلما سمحت له الفرصه حتى لا يغفل عن ذكر الله فتخطفه الشياطين وتضله عن سواء السبيل وليس قراءته من طرف لسان وشفته وحنجرته بل من قلبه الذى يقرأ ولسانه الذى يردد فكانت الخشيه والهدايا والأستقامه

نتيجة ذلك فهذا مثله الرسول الكريم بالاترجة ذات الطعم الطيب والرائحة الطيبه فأن بلوناه واختبرناه وعملناه لن نجد منه امرأ وفيا برا نقيا يقدس الحق ويعمل الخير وان شممناه فرائحته طيبه ذكيه تحى القلوب وتنعش النفوس وكيف لا يكون كذلك ونفحة القرآن ومسكه هو الذى انبعث من لسانه الرطب المعطر وقلبه الحى المطهر.

٢ـ شخص بالقرآن مؤمن وبأحكامه عامل وبأرشاده مهتد وبأخلاقه متخلق ولكن لم يؤت القرآن إلى تلاوة وحفظا وأن أوتيه تطبيقا وعملا فهذا كالتمرة حلوة الطعم لذيذه طيب الخلق صادق النيه حسن الطوية اما رائحته فمفقوده إذ لم يتطيب بمسك القرآن وإن غسل قلبه بماءه بسلسبيل وتمثله فى عمله الجليل وقد مثله الرسول ص بالتمرة ذات الطعم الطيب ولكن لا ريحة لها.

٣ـ منافق ليس له من الإيمان والإسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا رسمه يقرأ القرآن وقد يجيد حفظه ويتقن طرقه ويعرف قراءاته وتوقيع ألفاظه ونغماته ولكن لا يجاوز التلاوة حنجرته وهذا ١٢٩ ، الإنسان ان بلوناه يكشف لنا عن القرب الاسود والفؤاد المظلم وخلقة المر وعمله المضر وقد مثله الرسول ص بالريحانه إن شممت فرائحته ذكية وان ذقت مراره لاذعه ومثل هذا الانسان لا اثر للقرآن فى نفسه فقد ختم نفاقه على قلبه لا تؤثر فيه نصيحه ولا تنجح له موعظه..

٤ـ الشخص المنافق لا صله له بالقرآن باته لا علما ولا عملا ولا تلاوه ولا حفظا وهذا شبه النبى ص بالحنظله لا ريحه لها وطعمها مر وهذا الانسان يحمل نفسا خلقت من الفجور وعلى الفجور ونبتت فى النفاق ان تزوقها الناس اذته ودنست نفوسه ولا يشم منها خير ابدا اذ حرم من طيب الطيوب وعطر العطور كتاب الله الكريم حياة الناس والقلوب.

ـ القيم والارشادات:

١ـ يدعونا الحديث إلى تلاوة القرآن وحفظه فهو كتاب الله ودستور الحياة.

٢ـ التلاوه الحاقه لا تكون باللسان فقط بل بالتدبير والتأمل وبالخشوع والخضوع لجلال الله وسلطانه .

٣ـ تلاوة القرآن وتعمق معانيه تجعلنا على صله قويه بالله عز وجل لان القرآن هو الحبل المتين بين العبد وربه.

٤ـ يحذرنا الرسول ص بطريقه لطيفه من التلاوه التى لا تجعل النفوس والقلوب تلين. ١٣٠

٥ـ يدعونا الحديث إلى شىء مهم جدا وهوالعمل بما حاء فى كتاب الله اذ ما فائده ان يقرأ الانسان كتاب الله ولا يطبق تعاليمه.

٦ـ من أجل ذلك كله جعل النبى ص الاشخاص اللذين لهم صله بالقرآن الكريم اربع درجات مجعل لنا حرية الاختيار وما نختار الا اعلاها درجه بطبيعه الحال وهذه الدرجات هي:

أ ـ فاليقرأ القرآن من يعمل به فهو كالأترجه طيب الرائحه وطيب النفس.

ب ـ من لا يقرأ القرآن فيعمل به وهو مؤمن فهو كالتمر غير طيب الرائحه لكنه طيب النفس .

ج ـ من يقرأ القرآن ولا يعمل به وهو منافق فهو كاريحانه طيب الرائحه غير طيب النفس.

د ـ من لا يقرأ القرآن ولا يعمل به وهو منافق فهو كالحنظله غير طيب الرائحه غير طيب النفس .

٧ـ هذا حديث من احاديث الرسول ص التى تتميز كلها باستقامة المعنى والبعد عن اللغو والسقط من الكلام والبعد عن الصنعه والركاكة وتتميز بالإيجاز والإعجاز وهى فى البلاغة فى الدرجه الثانيه بعد القرآن الكريم لان الرسول ص افصح العرب على الاطلاق وهو لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ١٣١

ـ حديث نبوى شريف:

الاسلام والعمل

ـ الحديث:

اتى رجل من الانصار يسأل رسول الله ص فقال اما فى بيتك شىء قال بلا حلس نلبس بعضها ونبسط بعضها وقعد نشرب فيه الماء قال اءتى بهما فأخذهم ص فقال من يشترى هاذين فقال الرجل انا اخذهما بدرهم فقال رسول الله ص من يزيد على درهم قالها مرتين او ثلاثه قال رجل انا أخذهما بدرهمين فأعطاهما اياه واخذ الدرهمين واعطاهما الانصارى وقال اشترى بإحداهما طعاما فأنبذه إلى اهلك واشترى بالاخر قدوما فأتنى به فأتاه به فشد فيه رسول الله ص عودا بيده ثم قال له اذهب واحتطب وبع ولا ارينك خمسه عشر يوما ففعل الرجل ثم جاء وقد اصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال ص هذا خير لك من ان تجىء المسأله نكته فى وجهك يوم القيامه ان المساله لا تصلح الا لذى فقر مدقع او لذى غرم مفزع او لذى دم موجع

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ـ معانى المفرادات:

يسأل يطلب مالا حلس كساء سميك غليظ قعد إناء قدح ضخم انبذه إلى اهلك اطرحه إلى اهلك قدوم فأس احتطب اجمع حطبا ١٣٢.

أصاب اكتسب المسأله طلب المال على سبيل التسول مكته علامه فقر مدقع الفقر الشديد الذى يجعل الانسان ملتصقا بالتراب غرما دين دم موجع عليه ديه ثأر

ـ ضوء على الحديث:

العمل هو اساس الحياة وهو إحدى الدعائم التى دعا إليها الإسلام ولذا يقول الله سبحانه وتعالى وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ويقول عز وجل فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ويقول الله عز وجل فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور

وكان ص يوجه اصحابه إلى العمل ويحثهم عليه ويبعدهم عن التسول والبطاله ليعيشوا حياة عزيزة كريمه ولذلك عندما جاء هذا الرجل إلى النبى ص يسأله لم يعطيه النبى ما يريد ولكنه وجهه إلى العمل رغم فقر هذا الرجل وكان فى إمكان النبى عليه السلام ان يعطى هذا السائل ولكن الرسول ص اراد ان يعطى المسلمين درسا فطلب من الرجل ان يأتيه بشىء مما فى بيته وهنا نجد طاعة الصحابة لرسولهم الكريم فأما الرجل بما عنده باعهما النبى فى المزاد العلنى حتى يصل إلى الغاية المنشودة بدون مغالاه او مخادعه واحس بأن ١٣٣ هذا السعر سيكفى المطلب ويفى بالغرض الذى يقصده باعمها النبى ص واعطى المبلغ للرجل فى يده ليطمئنه على ماله ويلقنه درسا فى الامانه ولم ينس اسرة الرجل الفقير فهى فى حاجة إلى طعام وهذه اشارة إلى ألا تطغى المصلحه الفردية على مصلحه الاسرة او يترك الانسان اسرته بلا طعام حتى يحقق مغنما او ربحا او يأخذ كل ما لدى الاسرة من مال ليستثمره ويترك اسرته تتضور جوعا ولما اتى الرجل بما يطلبه النبى منه قام

ص بنفسه فشد عودا فى القدوم وهذا ارشاد نبوى عظيم إلى ضرورة ان يرشد القائد او الحاكم الرعية إلى وسائل العمل وان يكون قدوه لهم فى العمل ثم طلب النبى ص من الرجل ان يحتطب وفى ذلك ارشاد إلى العمل المناسب للشخص على حسب قدرته ثم اعطائه فرصة للكسب ولذلك لم يطلب النبى من الرجل ان ياتيه بعد يوم او يومين انما اعطاه فرصة للعمل والبيع والتجارة حتى يربح وربما تكون هذه المده هى اقل فترة تحدد لاختبار العامل فى عمله ان اخلص وجد فى هذا العمل ونرى بعد ذلك ان الرجل قد ربح عشرة دراهم فاشترى لاسرته الطعام وسد رمقها واشترى لهم ملابس وهذان الامران اهم متطلبات الاسرة والملبس بعد السكن١٣٤.

ولما جاء الرجل إلى الرسول ص جاء مسرورا فسر ايضا رسول الله ص وقد لقنه درسا عظيما لمن يستحق المعونه واهم من يستحقونها كما اوضح ص هم الفقير فقرا شديدا لا يستطيع معه ان يقوم من الارض لانه لا يجد ما يقيم به صلبه ومن عليه دين كثير لا يستطيع ادءه او من عليه ثأر ومطلوب منه دفع الديه وهؤلاء هم الاصناف الذين يستحقون المسأله ويستحون العطف حتى يصلح المجتمع وإلا فان هؤلاء سيحملون حقدا وغلا لهذا المجتمع وربما تدفعهم هذه الامور الثلاثة إلى ارتكاب جرائم لا يرضى عنها الدين

ـ القيم والإرشادات:

١ـ يعالج الحديث مشكله المسأله علاجا ناجحا فالرسول ص لم يحلها بتقدير معونه مؤقته وانما اراد ان يحل المشكله من جذوره.

٢ـ فى الحديث دعوة إلى العمل وتكريم من يعمل فبالعمل يرفه المجتمع ويزداد خيره ويتقدم ويسوده الاستقرار .

٣ـ يضرب الرسول ص فى هذا الحديث اروع الامثله فى هذا العمل فهو المرشد والمعلم ولذلك ارشد الرجل إلى طريقه يحفظ بها ماء وجهه من مذلة السؤال .

٤ـ يعطى هذا الحديث درسا فى الزجر عن السوال كما انه يبين اصناف الناس اللذين يستحقون المسألة..

٥ـ يبيح الحديث البيع بالمزاد العلنى لكن بدون مغالاه مع اظهار السلعه المباعة

٦ـ يرشد الحديث إلى اختيار العمل المناسب للانسان واختيار من يقوم بالعمل كما يحدد المده التى يمكن ان يربح بها المخلص فى عمله.

٧ـ يوضح الحديث مسؤليه الانسان تجاه اسرته وعليه ان يوفر لها اهم مطلبين الطعام والكسا بعد المسكن.

٨ـ يبين الحديث ان رئيس العمل عليه ان يضرب المثل فى الاخلاص فى العمل وفى توجيه مرءوسيه إلى ما يفيدهم ويفيد المجتمع من عمل

٩ـ يدلنا الحديث على ان ثمة طريقة رشيده فى حل مشكله البطاله وهى ان نهىء لكل عاطل عملا ليعيش كريما كافيا نفسه واسرته مذلة التسول وبذلك يختفى كثير من المشكلات فى المجتمع نتيجة البطاله

١٠ـ فى هذا الحديث كثير من القيم بالاضافة إلى ما سبق مثل الصدق فلقد صدق الرجل عندما سأله النبى عما يوجد فى بيته والطاعة فلقد اطاع هذا الصحابى النبى ص والصراحه والامانه الواضحه فالرسول لم يأخذ الدراهمين وإنما أعطاهما الرجل ليشترى بنفسه ليكون مطمئنا على ماله غير متشكك فيمن يشترى له وغير ذلك كثير من الدروس الجميلة الجليلة المستفادة من هذا الحديث النبوى الشريف وعلى راسها قيمه العمل ١٣٦.

ـ من خطبة الرسول ص فى حجة الوداع:

ـ المناسبة :

حج الرسول ص حجة الوداع وهى الحجة الوحيدة التى حجها عليه السلام وكانت فى السنه العاشرة للهجرة وفيها اصطحب اهله واصحابه واحتشد فى هذا الموسم العظيم جمع غفير يزيد على مائة الف وفى يوم الحج الاكبر يوم عرفة وقف ص يخطب فى الناس وقد ظهر فى كلامه لهجة المودع الذى يشعر بدنو اجلله ولذا كان عليه السلام يسأل الناس ألا هل بلغت اللهم اشهد وبعدها بحوالى ثلاثة اشهر توفى ص فسميت الحجه حجة الوداع وعرفت الخطبه التى خطبها يوم عرفة بخطبة الوداع.

ـ النص:

أيها الناس إن دماءكم واموالكم حرام عليكم إلى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا الا قد بلغت اللهم اشهد من كانت عنده امانه فليؤدها إلى من ائتمنه عليها قضى الله الا ربا وإن ربا الجاهليه موضوع وإن دماء الجاهلية ١٣٧

موضوعه وإن مآثر الجاهليه موضوعه غير السدانه والسقايه والعمد قود أيها الناس إنما المؤمنون إخوه فلا يحل لامرىء مال اخيه إلا عن طيب نفس منه الا هل بلغت اللهم اشهد ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد

ـ معانى المفرادات:

موضوع ملغى دماء الجاهليه الذين قتلوا فى الجاهلية مآثر الجاهليه ما كان يتوارثه الناس فى الجاهليه من تراث وعادت تخالف الإسلام السدانه حراسه البيت الحرام وخدمته السقايه سقاية الحجيج العمد قود القتل العمد يجب فيه القصاص طيب نفس رضى

ـ القيم والارشادات:

تشمل هذه الخطبه النبوية الريفه على مجموعة من الاحكام والقيم التى تعد اسسا قوية لبناء مجتمع مسلم قوى صالح متعاون متسم بالامن والفضيله والخلق القويم الكريم ومن اهم هذه الاحكام ما يلى حرمه الاموال والدماء وقداستها فمن سفك دم مسلم او اكل ماله فكأنما انتهك حرمة يوم عرفه فى الشهر الحرام فى مكه واعتدى على الناس جميعا١٣٨ أداء الامانات إلى اهلها من اقدس الواجبات والزامها الغاء الربا وماثر الجاهلية التى لا تتفق والشريعة الاسلاميه الغراء القاتل عمدا لابد ان يقتص منه تؤكد الخطبة على ان يحترم المسلم اموال المسلمين فلا ياكلوها بالباطل ابدا التاكيد على الاخوه الاسلاميه والعلاقة المتينه بين المسلمين والدعوه إلى وحدة الكلمه والصف تبين الخطبة ان الناس لا يتفاضلون بينهم الا بالتقوى فهى المقياس الحقيقى والمعيار الاساسى الذى يقاس به المسلم تتسم الخطبه بسمات اسلوبيه وفنيه اهمها ما ياتى التاثر بالقرآن الكريم والاستفاده من الفاظه الشريفه ومعانيه العظيمه مثل أكرمكم عند الله اتقاكم انما المؤمنون اخوه بل ان الاحكام التى ذكرها الرسول ص ما هى الا صدى لما جاء فى القرآن الكريم

بساطة الألفاظ وسهولتها الاسلوب التعليمى السهل الذى يخلو من التعقيد والصعوبة حسن تقسيم فى الجمل مع وجود سجعات خفيفة غير متكلفه ولا كثيره الايجاز البليغ الذى جمع فيه الرسول الكريم ص المعانى الكثيره فى الفاظ كثيرة ١٣٩.

ـ من رساله لسيدنا عمر بن الخطاب فى القضاء:

النص كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى أما بعد

فإن القضاء فريضه محكمه وسنه متبعه فإنهم اذا ادلى اليك الحسن بحسن فانه لا ينفع تكلم لحق لا نفاذ له آس بين الاناس فى مجلسه ووجهك حتى لا يطمع شريك فى حيفه ولا يخاف ضعيف من جورك ،

البينه على من ادعى وجميل على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا احل حراما او حرم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيت با بالامس ثم رجعت فيه نفسك وهديت فيه رشدك ان ترجع عنه فإن الحق قديم والرجوع اليه خير من التمادى فى الباطل

الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنه نبيه صل الله عليه وسلم واعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد إلى احبها عند الله ورسوله واشبهها بالحق واجعل المدعى امدا ينتهى اليه فان احضر بينته اخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فان ذلك اجلى للعمل وابلغ من العذر ١٤٠

المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد او مجربا عليه شهاده زور او ظنينا فى ولاء او قرابه او نسب فان الله تولى منكم السراب وردء عنكم بالبينات والايمان ثم اياك والتأذى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التى يوجب بها الله الاجر ويحسن بها الذخر فإنه من تخلص من نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره

ـ معانى القرآن:

الفريضه هى ما اوجبه اللله على عباده محكمه متقنه اى ان للقضاء قواعد وأصولا دقيقه يجب على القاضى تحريها واتقانها ثم سنه طريقه وسيره من الشرع العمل المحمود وسنه النبى هى ما ينسب اليه صل الله عليه وسلم من قول او فعل ادلى بحجته قدمها احتج بها آس هذا فعل امر من المساواه اى سو بينهم حيفك ظلمك وجورك البينه الحجه والدليل البرهان الشاهد قضاء حكم رشدك الرشد هو ادراك السليم التمادى المضى فى الامر بلا مبالاه يتلجلج يدور فى الصدر والنفس الامثال جمع مثل وهو المعيار او النموزج او القالب الذى يتخذ لتقدير الاشياء الاشباه جمع شبيه وهو المثل المدعى من يوجهه طلبا ضد الخصم الامد النايه والغايه اجلى كشف ووضح عدول جمع عدل وعادل ١٤١.

الظنين المتهم الولاء القرابه درا دفع وابعد واخر التأذى بالناس اى التضرر منهم والضيق بهم والظخر ما يجمع ويحفظ وقت الحاجه هتك ازال المثصود اكتشف الامر وافتضح

ـ ضوء على النص:

هذه رساله تتصل بنظام القضاء وضمان العدل بين المتخاصمين وفيها ارساء لتقاليد القضاء فى الاسلام وتثبيت قواعده السليمه وتبيان لاهم واجبات القضاء ومن اهم هذه الواجبات ما يأتي النفاذ والوصول إلى الحق وفهمه فهم صحيح وسليمه وتطبيقه

ـ المساواه بين الطرفين الخصمين فى المعامله والسلوك:

البعد عن التحيز لطرف من الاطراف ووجوب التزام الحياة بين طرفين حتى لا يطمع الكبير فى الظلم فيتمادى ويخاف الصغير من عدم الانصاف

اقامة البينه على من ادعى وطلب اليمين والقسم فى حالة فقدان الدليل على من انكر

اذا اشتد الخصام بين الطرفين فان الصلح افضل ما يحرص عليه اذ لم تمس حدود الله واحكامه

الحث على التريث ال تروى ومراجعه النفس فى الاحكام التى يصدرها القاضى وبمعنى اخر اى يرجع القاضى الاحكام التى اصدرها ولا بأس عليه من العوده إلى الصواب اذا رأى انه اخطئ فى حكم سابق لأن الرجوع إلى الحكم فضيله وخير من التمادى فى الباطل ١٤٢.

الدعوه إلى الاجتهاد فى الاحكام واعمال الفكر فيما لا نصل فيه عن طريق الفهم العميق والقياس الصحيح الدقيق على الاشباه والنظائر

ان يحدد القاضى مده واجله وتقديم الادله والبراهين التى يطلب المدعى تقدمها اتقوى الله سبحانه وتعالى ومراعاه الضمير وعدم الأخذ بالمظاهر الخداعه البراقه

التحرى بدقه فى نشدان العدم والحرص على ارتضاء الله عز وجل ومراقبه الضمير على القاضى ان يكون حصيفا ذكيا فطنا لماحا عادلا حتى يشعر الناس بالامن والامان ويحيى المجتمع فى محبه وموده وخير وسلام

تتميز هذه الرساله بالاسلوب السهل البسيط الواضع بعمق المعانى ودقه الالفاظ والتأثر بالدين الاسلامى والايجاز الشديد مع وضوح الهدف

جاء كثير من عبارات الرساله حكما متداولا فى مجال القضاء ومنهجا مأخوذا به فى عالم العداله تدلنا هذه الرساله على مدى العدل الشديد الذى تميز به شيدنا عمر وكان يطبقه إلى ابعد مدى واقصى حد ١٤٣

ـ من خطبه الحجاج بن يوسف الثقفى فى الكوفة:

تعريف بالخطيب هو ابو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى ولد بالطائف وكان والده من مشايخ ثقيف نبيلا جليل المقدار وقد احترف الحجاج مهنا التعليم ثم انضم إلى الجيش وترقى حتى تولى القياده فى الجند ثم تولى العراق من قبل بنى اميه وقد توفى وعمره اربع وخمسون سنه وكان قد ولد فى بدايات العصر الاموى كان الحجاج متسما بالطموح متطلعا إلى تحقيق المطامع معروفا بالعظمه والعنف ورفعه الشأن والاقدام ومما يدلنا على طموحه انه عندما اخمد ثوره بن الزبير فى الحجاز ارسل إلى عبد الملك بن مروان يقول لقد حزت الحجاز بشمالى وبقيت يمينى فارغه وبعث اليه عبد الملك بعهد العراق

المناسبه القى الحجاج بن يوسف هذه الخطبه عندما تولى العراق وذهب إلى الكوفه فى اثنى عشرفارسا وقد دخلها فجأه قاصدا مسجد وكان معتما بعمامه خز احمر غطى بها وجهه وقد تقلد سيفا وتنكب قوسا وصعد المنبر ونظر اليه الناس ومكث برهه لا يتكلم حتى قال الناس قبح الله بنى اميه تستعمل مثل هذا على العراق فلما رأى عيون الناس تحملق فيه وتطيل النظر حسر لثمامه عن وجهه ونهض قائلا هذه الخطبه ١٤٤

ـ النص:

انا بن جلى طلاع الثنايا متى اضع العمامه تعرفونى

والله يا اهل العراق انى لأرى رؤوسا قد اينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى انظر إلى الدماء بين العمائم واللحى انى والله يا اهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الاخلاق ما يقعقع لى بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين

ان امير المؤمنين اطال الله بقائه نثر كنانته بين يديه فوجدنى أمرها عودا وواصلبها مكثرا فرماكم بى لأنكم طالما اضعتم فى الفتنه واضجعتم فى مراتب الضلال

والله لأحزمنكم حزم السلمه ولأضربنكم ضرب غرائب الابل فإنكم لكأهل قريه كانت آمنه مطمئنه يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرتم بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بيما كانو يصنعون وانى والله ما اقول الا وفيت ولا اهم الا امضيت ١٤٥.

ـ معانى المفردات:

جلا قيل فيها عده تفسيرات لعل احسنها ان جلا اسم مقصور من الجلا بمعنى الوضوح اى انا بن الواضح الآمر وقد قيل ان جلا اسم رجل مشهور معروف بالقتل وقيل انه فعل

العمامه غطاء الرأس ومن معالمها خوذه الحرب

أضع اجعلها على الرأس استعدا للحرب ومن معانى اضع اخلع

وهذا البيت لشاعر يسمى سحيمف بن يثيم الريحانى وهو شاعر مخضرم عاش اربعين سنه فى الجاهليه وستين فى الاسلام اينع نضج يقعقع القعقعه صوت الجلود اليابسه والشنان جمع شن وو الجلد اليابس كتغماز التين وفى روايه كتمغاز التنين وهو الحيه والتين والحية كلاهما لين الملمس والمقصود لست بضعيف الجانب الكنانه جعبة السهام امرها من المراره والمقصد اسم مكان وهو موضع اوضعته اسرعتم السلمه شجرة مملوئه بالشوك يعسر خرط ورقها غرائب الابل اى الابل الغريبه عن موطنها وغرائب الابل تضرب ضربا لا شفقه فيه .

ـ ضوء على النص:

تحمل هذه الخطبه فى بدايتها تهديدا وعيدا لاهل العراق وتصور مدى الكره لهم والقسوة عليهم والتأديب لهم لحجاج ١٤٦ يستهلها ببيت يريد به تعريفهم بنفسه فهو

القائد الجبار القاسى العنيف وهو الذى لا يخفى امره على احد وتبين الخطبه ايضا مذهبه وسياسته فى الحكم ثم تصف اهل العراق بالنفاق والشقاق وسوء الاخلاق وان الحجاج لن يتسامح معهم فى شىء كما تسامح الولاه من قبله فهو لا تغمذ له قناه ولا يلين له جانب وعنده العلاج الناجع لكل عاص او خارج عن امره او لكل من يضمر سوءا ثم يوضح الحجاج بعد ذلك مكانته لدى الخليفه فهو امضى سهل وجهه للخليفه من بين سهامه إلى اهل العراق تأديبا لهم وتهذيبا وقضاء على الفتنه التى سقطوا فيها طويلا والضلال الذى رتعوا فيه ردحا من الزمن بلا مبلاه ويقسم بعد ذلك انه لن تأخده بهم رحمه ولا رأفه ولا شفقه فلقد كفروا بأنعم الله ولسوف يبر بقسمه ويفى بموعد.

ـ التعليق:

الحجاج خطيب بارع قوى الحجه والبرهان سليط اللسان فصيح يملك ناصيه البيان شجاع رابط الجأش والجنان استطاع الحجاج ان يؤدب أهل العراق ويجعل الأمور تستتب لبنى أميه حتى قال عبد الله بن مروان الحجاج جلده ما بين عينه وقال عنه الوليد بن عبد الملك ان ان الحجاج جلده ما بين عينه ابى فإن جلده وجهى كله.

عرف الحجاج بأن كان يمتلك ناصيه اللغه فهو ولا يلحن حتى لقد عد ضمن أربعه لم يلحنه فى جد ولا هزل ولا هم الشعبى وعبد الملك الحجاج وابن القريه وكان الحجاج افصحهم تميل خطب الحجاج وابن القريه وكان الحجاج أفصحهم تميل خطب الحجاج إلى لاطاله كما تتسم بالسجع وفصاحه العباره والتأثر بالقرآن الكريم إلى جانب فخامه الاسلوب وضخامه الكلمات والتأثر بالشعر والامثال وتمثل خطب الحجاج صورة صادقة لنفسيته القوية العنيفة وتوضح مذهبه السياسى

ـ من خطبة زياد المعروفه بالخطبه البتراء:

ـ تعريف بالخطيب:

هو احد دهاة العرب وساساتهم ولد عام الهجرة وقيل قبله بقليل وقد ولد لام تسمى سميه وهى جارية فارسيه كانت للحارث بن كلدة الثقفى وقد نسبه ابو سفيان لنفسه مدعيا ابوته وقد عرف بزياده ابن ابيه لانه ليس له اب على وجه التحديد ولاه الامام على امارة فارس وولاه معاويه العراق توفى سنه ٥٣هـ

ـ مناسبة النص:

ألقى زياد هذه الخطبه فى البصرة حينما ذهب اليها واليا من قبل معاويه وقد اختلفت بها الامور وعبث بها اللصوص وقطاع الطرق وانتشر بها الفسق والفجور وقد سميت او عرفت خطبته بالبتراء لانها لم تبدا بحمد الله التحميد والتمجيد لله عز وجل

ـ النص:

أما بعد فإن الجهاله الجهلاء والضلاله العمياء والغي موفى باهله على النار ما فيه سفهائهم كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد ١٤٩ الله من الثواب الكريم من أهل طاعته والعذاب الاليم لأهل معصيته أفلا تكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات ما هذه المواخير المنصوبه الم تكن منكم امهات تمنع الغواه عن دلج الليل لقد تبعتم السفهاء فلم يزل بكم ما ترونه من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام

اتنى رأيت اخر هذا الامر لا يصل الا بما صلح به اولا لين بغير ضعف وشده فى غير عنف اياى ودعوى الجاهليه فإنى لا أخذ داعيا بها الا قطعت لسانه ولقد احدثتم احداثا لم تكن وقد احدثنا لكل ذنب عقوبه فكفوا عنى ايديكم والسنتكم اكفف عليكم

يدى ولسانى من كان منكم محسنا فاليزداد احسانا ومن كان منكم مسىء فلينزع عن اسائته

ايها الناس انا اصبحنا لكم سادا وعنكم ذادا ونسوسكم بسلطان الله الذى اعطانا فلنا عليكم السمع والطاعه فيما احببنا ولكن علينا العدل والانصاف فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفئينا بمناصحتكم لنا واعلموا انى مهما قصرت عن شىء فلن اقصر عن ثلاث لست محتجا عن طالب حاجه ولو أتانى طارقا بليل ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانه ولا مجمرا لكم بعثا فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكفهكم الذى إليه تأوون ومتى يصلحوا تصلحوا ١٥٠

أسأل الله ان يعين كلا على كل وأيم الله انى لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاى

ـ معانى المفرادات:

الجهلاء الشديدة العمياء اى التى يعمى فيها الناس الغى الضلال الموفى على النار المشرف على النار اى الذى يوشك بصاحبه ان يقع فى النار طرفت صرفت بمعنى اصاب العين شىء فدمعت المواخير جمع ماخور وهو بيت الريبه من الخمارات وغيرها دعوى الجاهليه المقصود بها إثارة العصبيات والفاخرات احدثتم اتيتم بأمور منكره ذادة حماة مدافعين فيئنا المقصود مال الخراج وغنيمة الحرب ولينا تولينا مجمرا جمر الجند بمعنى حبسهم فى ارض العدو ولم يرجعهم أيم الله اسم وضع ببقسم صرعى قتلى إبانه وقته

ـ التعليق:

تعد هذه الخطبه دستور حكم وبداية عهد وقانون حاكم يعتمد على اللين فى غير ضعف والشدة فى غير عنف وفيها ادب وغلظه ودين ودعوه إلى الاستقامه وتحذير

من الفواحش وفيها دعوه إلى الاصلاح والعدل واستتباب الامن وتحذير للفاسدين توالفاسقين من عقوبات تنتظرهم

تعبر هذه الخطبه عن ادب القوة والاعتزاز بالشخصية كما تعبر عن المعاره والسياسة الاداريه ١٥١ فى الخطبة تخويف من إثارة العصبيات القبلية والحروب لأى سبب من الأسباب .

تدعو الخطبه إلى الالتزام بمحاسن الاخلاق والفضائل واجتناب الفواحش والرذائل.

تبين الخطبه مهمة الاساسه والقادة ما توضح واجب الافراد ومن ثم فهى خطبه سياسية فى المقام الاول إذ يرسم فيها زيادة سياسية التى ينتهجها فى الحكم وطريقة تعامله مع الرعية

الأفكار فى الخطبه متسلسله تسلسلا دقيقا مترابطه ترابطا قويا والعبارات واضحه لا تعتقد فيها ولا تكلف والسجع لم يات مقصودا لذاته وإنما جاء عفو الخاطر واما الفقرات فقد جاءت محمه والصور بديعة خلابه

يعد زياد بن ابيه احد الفحصاء المشهود لهم بذلك وهو الخطيب المصقع الذى لا يشق لع غبار والذى يجرى الكلام على لسان أنه الماء العذب الزلال حتى لقد قال عنه الشعبى ما سمعت متكلما على منبر تكلم فأحسن إلا تمنيت ان يسكت خوف الاساءه إلا زيادا فانه كلما اكثر كان اجود كلاما

ويقال عنه أنه ان خطيبا لا يبارى فى جودة خطابته يعرف كيف يصوغ كلمة صوغا تهش له الاسماع وتصغى له القلوب ١٥٢.

ـ من رسالة سيدنا على ابن ابى طالب كرم الله وجهه إلى أهل مصر:

ـ النص:

ألا ترون إلى اطرافكم قد انتقضت والى امصاركم قد افتتحت والى ممالككم تزوى والى بلادكم تغزى ، انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم ولا تثاقلوا اللا الارض فتقروا بالخسف وتبؤؤا بالذل ويكون نصيبهم الاخس إن أخا الحرب الاق ومن نام لم ينم عنه والسلام.

ـ معانى المفرادات:

أطراف جوانب انتقضت انتزعت امصاركم بلادكم ومدنكم تزوى تطوى وتقبض تغزى يهاجمها الاعداء انفروا قاتلوا تثاقلوا تباطئوا تقروا تعرفوا الخسف الذل والهوان تبؤؤا ترجموا الرق من لا ينام.

ـ ضوء على النص:

الرساله تدعو شعب مصر إلى الانتباه والنظر فى جوانب بلادهم وقد بدأت مدنهم تنتزع منهم ويسيطر عليها العدو وتحثهم على الالتفاف إلى اقاليمهم وقد بدأت تطوى وتقبض فى ايدى الغزاه وقد هاجموها، وإذا كان الامر كذلك فلا داعى للتوانى والكسل بل لابد من الاسراع إلى الجهاد وعدم التباطؤ وعدم الاقرار بالذله والهوان ١٥٣ ، وتنبههم إلى ان المقاتل إلى ان المقاتل دائما ما يجب ان يكون يقظا منتبها مستعدا لقتال عدوه اما المحارب النائم فانه سيلقى مصير اهماله ونومه ومن غفل عن وطنه فان العدو لن يغفل عنه ولسوف ينتبه ويهاجمه.

ـ التعليق:

١ـ تصارح الرساله اهل مصر وتكاشفهم بما يدور حولهم من فتن واضطرابات وان العدو محدق بهم يحاول انتقاض اطرافهم وهى بذلك تنبههم إلى ضرورة اليقظة ليحل الاعداء ومكائدهم وضرورة الحفاظ على وطنهم والجهاد فى سبيله.

٢ـ تدعوا الرساله إلى ضرورة الحيطه والحذر من الاعداء وتبين ان من غفل عن وطنه فإن ذلك الوطن سوف يستباح وينتهك.

٣ـ الموضوع الاساسى فى الرساله الجهاد ومواجهة الفتن وهى بذلك تبين الجو العام اللذى كان يعيش فيه الناس فى ذلك العصر والصراع السياسى الذى اقترن به المجتمع اين ذاك .

٤ـ توضح الرساله اخلاص الامام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه فلقد وجه نصحا خالصا لاهل مصر حيث دعاهم إلى ضرورة الحفاظ على وطنهم ما تبين مدى حكمته وحسن سياسته ويقظته وخبرته بالحروب واساليبها ومعرفته بوسائل النصر والغلبه كما تضع تصورا صادقا للظروف والاهوال المحاطه بالمجتمع والاحداث التى يمر بها ١٥٤.

٥ـ تتميز هذه الرساله بوضوح المعانى وترتيب الافكار وعمقها وقوة العاطفه وتدفقها تلك العاطفه التى تدل على إحساس سيدها على بالمسؤليه المناط بها كما تتميز بالتأثير بالقرآن الكريم لا تثاقلوا ووجود اساليب إنشائيه الا ترون انفروا إلى جانب الاساليب الخبريه والصور البلاغيه لا تثاقلوا اخا الحرب ١٥٥

ـ من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ـ الوصيه الأولى:

عن الحارث الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ص إن الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات ان امر يعمل بها وان يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها وانه كاد ان يبطىء بها فقال عيسى عليه السلام ان الله امرك بخمس كلمات ان تعمل بها وتأمر بنى اسرائيل ان يعملوا بها فإما ان تامرهم بها واما ان آمرهم بها فقال يحيى عليه السلام اخشى إن سبقتنى بها ان يخسف بى او اعذب

فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلا المسجد بهم وقعدوا على الشرف وقال ان الله امرنى بخمس كلمات ان تعمل بهاوإما ان آمرهم بها فقال يحيى عليه السلام اخشى ان صبقتنى بها ان يخسف بى او ان يعذب فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلىء المسجد بهم وقعدوا على الشرف وقال ان الله امرنا بخمس كلمات ان اعمل بهن وان امركم ان تعملوا بهن اولهم ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا فإن مثل من اشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب او ورق وقال هذه دارى وهذا عملى فعمل وادى اليه فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده فأياكم يرضى ان يكون عبدا ذلك وان الله تعالى امركم بالصلاه فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصر بوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت وامركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل فى عصابه معه صر فيها مسك وان ريح فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك وامركم بالصدقه فان مثل ذلك كمثل رجل اسره العدو فاوسقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال انا افدى نفسى منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم وامركم ان تذكروا الله فان مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى اسره سراعا حتى اتى على حصن حصين فاحرز نفسه منهم وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان الا بذكر الله تعالى فقال ص وانا امركم بخمس الله تعالى امرنى بهم السمع والطاعه والجهاد والهجره والجماعه فان من فارق الجماعه قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه الا ان يرجع ومن دعا بدعوة الجاهليه فهو فى جهنم فقال رجل وان صام وصلى يا رسول الله قال وان صام وصلى فدعوا بدعوه الله الذى سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله تعالى .

ـ الوصية الثانية:

قال سويد الاسدى وفدت سابع سبعه من قومى على رسول الله ص فلما دخلنا عليه وكلمناه عجبوا ما راى من سماتنا وزينا فقال من انتم فقلنا مؤمنون فقال ان لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وصدق ايمانكم فقلنا خمسه عشر خصلا خمس امنا بها

وخمس عملنا بها وخمس تخلقنا بها فى الجاهليه ونحن عليها للآن فان تركتها تركناها فقال عليه السلام اذكروا ما عندكم ١٥٧.

فقالوا اما خمس الايمان فهى ان نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت واما خمس العمل فهى ان نشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وان نقيم الصلاه وتؤتى الذكاه ونصوم رمضان ونحج البيت ان استطعنا اليه سبيلا واما خمس الجاهليه فهى الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء والرضا بمر القضاء والصدق والثبات عند الحرب واللقاء وترك الشهاده للاعداء ومن عظم سرور النبى ص بهم وبإيمانهم النقى وفطرتهم السليمه فقال لهم انتم حكماء علماء فقهاء كدتم ان تكونوا انبياء وانى ازيدكم خمسه ليتم لكم عشرون إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبلوا مالا تسكنون ولا تتنافسوا فى شىء انتم عنه غدا زائلون واتقوا الله الذى اليه ترجعون وعليه فأعرضون وارغبوا فى ما انتم عليه تقدمون وفيه تخلدون ١٥٨

ـ دستور الحرب فى الاسلام:

ـ وصية سيدنا ابى بكر اسامه ابن زيد حين سيره إلى الشام:

ايها الناس اوصيكم بعشره فاحفظوا عنى لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرءه ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمره ولا تذبحوا شاه ولا بقره ولا بعير الا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرقوا انفسهم لا وسوف تقدمون على قوم ياتونكم بأنيه فيها الوان الطعام فإذا اكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون اقواما قد فحصوا اوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفئوهم بالسيف خفقا اندفعوا بسم الله159.

ـ دستور القائد الفاتح من وصيه سيدنا ابى بكر لزيد ابن ابى سفيان حين سيره الفتح الشام:

إنى قد وليته لابلوك واجبرك فان احسن رددتك إلى عملك وزدتك وان اسات عزلتك فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك وان اول الناس بالله اشدهم تقربا اليه بالعمل واياك وعبيد الجاهليه فان الله يبغضها ويبغض اهلها واذ قدمت على جندك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم به وإذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينصع بعضه بعضا واصلح نفسك يصلح لك الناس وصلى الصلوات فى اوقاتها واذ اقدم عليك رسل عدوك فاكرمه واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولا تريسوا فروا خلالك واعلموا علما وامنع من قبلك بمحادثتهم وكن انت المتولى لكلامهم ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط امرك وإذ استشرق فاصدق الحديث ولا تخزل عن المشير خبرك فتأتى من لدنك نفسك واثمر بالليل فى اصحابك تاتى الاخبار واكثر حرسك وبددهم فى عسكرك واكثر مفاجئتهم بغير علم منهم فمن وجدته غفل عن محرسه ادبه وعاقبه فى غير افراج وعقب بينهم بالليل واجعل النوبه الاولى اطول من النوبه الاخيره ولا تجالس العابسين وجالس اهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس ١٦٠.

ـ من وصايا سيدنا على ابن ابى طالب كرم الله وجهه:

ـ الوصية الاولى من وصيه الامام على كرم الله وجهه:

ـ الوصية الأولى:

لابنه الحسن عليه رضوان الله من الوالد الفان المقر بالزمان المدبر العمر المستسلم للطهر الازم للدنيا الساكن مساكن الموتى والظاعن عنها غدا إلى المولود المؤمن مالايدرك السالك سبيل من هلك غرض الاسقام ورهينه الايام ورميه المصائب وعبد

الدنيا وتاجر الغرور وغريم المنايا واسير الموت وحليف الهموم وقرين الاحزان ونصيب الافاة وصريع الشهوات وخليفة الاموات اما بعد فإن فيما تبينت من اخبار الدنيا عنى وجموح الدهر على واقبال الاخره اليه ما يزعونى عن ذكرى من سواء والاهتمام بما ورائى غير انى حيث تفرد بى دون هموم الناس هم نفسى وصدقنى رأى وصرفنى عن هوائى فإنى اوصيك بتقوى الله ولزوم امره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله واى سبب اوسق من سبب بينك وبين الله ان انت اخذت به .١٦١

أحي قلبك بموعظه وامته بالذاهيه وقويه باليقين ونوره بالحكمه وذلله بالموت وقربه بالفناء وبصره فجائع الدنيا وحذره سولة الدهر وفحش تقلب الايام والليالى واعرض عليه اخبار الماضيين وذكره بما اصاب من ان قلبه من الالين وسر فى ديارهم واثارهم فانظر فيما فعلوا وعما انتقلوا واين حلوا ونزلو فانك تجدهم قد انتقلوا عن الاحبه وحلو دار الغربه وكانك عن قليل قد سرت كاحدهم فاصلح مثواك ولا تدع اخرتك بدنياك ودع القول فيما تعرف ولا الخطاب فيما تكلف وامسك عن طريق اذا خفت ضللتها فان الكف عن حيرة الضلال خير من طيبه الضلال وامر بالمعروف تكن من اهله وانكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعل بجهدك وجاهد فى الله حق جهاده ولا تأخذكم فى الله لومه لآئم وخض الغمرات بالحق حيث كان وتفقه فى الدين وعود نفسك النتصبر على المكروه ونعم الخلق التصبر والجيء نفسك فى الامور كلها إلى اهلك فانك تلجأها إلى هف حريز ومانع عزيز واخلص فى المسأله فان بيده العطاء والحرمان واكثر الاستخارة وتفهم وصيتى ولا تذهبن عنها صفحا فان خير القول ما نفأ واعلم انه لا خير فى علم لا ينفع ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه .

واعلم ان مالك الموت هو مالك الحياة وان الخالق هو المميت وان المفنى هو المعيد وان المبتلى هو المعافى وان الدنيا لم تكن لتستقر الا على ما جعلها الله عليه من

النعماء والابتلاء والجزاء فى المعانى او ما شاء مما لا نعلم فان اشكل عليك شىء من ذلك فحمله على جهالتك به فإنك اول من خلقت جاهلا ثم علمت وما اكثر ما تجهل من الامر ويتحير فيك رأيك ويدل فيه بصرك ثم تبصره بعد ذلك فاعتصم بالذى خلقك ورزقك وسواك وليكن له تعبدك واليه رغبته ومنه شفقته واعلم يا بنى ان احدا لم ينبأ عن الله كما انبأ عنه الرسول ص فرضى به رائدا والى الناجاه قائدا فإنى لما الك نصيحه وانك لم تبلغ فى النظر إلى نفسك وان اجتهدت مبلغ النظر لك واعلم يا بنى انه لو كان لربك شريك لاتتك رسله ولرأيت اثار ملكه وسلطانه ولعرفت افعاله وصفاته ولكنه اله واحد كما وصف نفسه لا يضاده فى ملكه احد ولا يزاول ابدا ولم يزل اوله قبل الاشياء بلا اوليه واخر بعد الاشياء بلا نهايه عظم عن ان تثبت ابوبيته بإحاطه قلب او بصر فإذا عرفت ذلك فافعل ما ينبغى لمثلك ان يفعله فى صغر خطره وقلة مقدرته وكثرة عجذه وعظيم حاجته إلى ربه فى طلب طاعته والرهبه من عقوبته والشفقه من سخطه فانه لم يامرك الا بحسن ولم ينهك الا عن قبيح يا بنى اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكرهه لها ولا تظلم كما لا تحب ان تظلم واحسن كما تحب ان يحسن اليك واستحبق من نفسك ما ١٦٣ تستقبح من غيرك وارض من الناس بما ترصاه لهم من نفسك ولا تقل ما لا تعلم وان قل ما تعلم ولا تقبل مالا تحب ان يقال لك واعلم ان الإعجاب ضد الصواب وآفة الالباب فاسع فى كدحك ولا تكن خازنا لغيرك وإذا أنت هديت لصدقك فكن أخشع ما تكون لربك.

يا بنى أكثر من ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه وتفضى بعد الموت إليه حتى يأتيك وقد أخذت منه حذر وشددت له ازرك زلًا يأتيك بغتة فيبهرك وإياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليه فقد نبأك الله عنها ونعت لك نفسها وتكشفت

لك عن مساويها فان أهلها كلاب عاوية وسباع ضاريه يهر بعضها بعضا ويأكل عزيزها ذليلها ويقهر كبيرها صغيرها .

واعلم يا بنى ان الرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تاته أتاك ما أقبح الخضوع عند الحاجه والجفاء عند الغنى إن لك من دنياك ما اصلحت به مثواك وان جزعت على ما تفلت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل اليك استدل على ما لم إذا بالغت فى إيلامه فإن اشباه ولا تكونن ممن لا تنفعه العظه إلا إذا بالغت فى إيلامه فإن العاقل يتعظ بالأدب والبهائم لا تتعظ الا بالضرب اطرح عنك وارادت الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين من ترك القصد جار والصاحب مناسب والصديق من صدق غيبه والهوى شريك العناء رب قريب أبعد من بعيد ورب بعيد اقرب من

قريب والغريب من ليكن له حبيب من تعدى الحق ضاق مذهبه ومن اقتصر على قدرة ككان ابقى له واواثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله ومن له يبالك فهو عدوك قد يكون اليأس وإدراكا إذا كان الطمع هلاكا ليس كل عورة تظهر ولا كل فرصه تصاب وربما اخطأ البصير قصده واصاب الاعمى رشده اخر الشر فإنك إذا شئت تعجلته وقطيعه الجهل تعدل صلة العاقل من أمن الزمان خانه ومن اعظمه اهانه ليس كل من رمى أصاب وإذا تغير السلطان تغير الزمان سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار إياك أن تذكر فى الكلام ما يكون مضحكا وإن حكيت ذلك عن غيرك

استودع الله دينك ودنياك وأسأله خير القضاء لك فى العاجله والآجله والدنيا والآخر والسلام ١٦٥.

ـ الوصية الثانية:

ـ وصية الامام على كرم الله وجهه لولده محمد بن الحنيفة رضى الله عنه:

يا بنى اوصيك بتقوى الله عز وجل فى الغيب والشهاده وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الفقر والغنى والعدل على الصديق والعدو والعمل فى النشاط والكسل والرضا عن الله عز وجل فى الشدة والرخاء

واعلم يا بنى ان من ابصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ومن رضى بفسم الله لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغى قتل به ومن حفر لاخيه بئر وقع فيها ومن هتك حجاب اخيه انكشفت عورات بنيه ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن كابر الامور عطب ومن اقتحم البحر غرق ومن اعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن سفه عليهم شتم ومن سلك مسالك السوء اتهم ومن خالط الانذال حقر ومن جالس العلماء وقر ومن مزح استخف به ومن اكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه ثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار يا بنى من نظر فى عيوب الناس ثم رضيها لنفسه فذاك هو الاحمق بعينه ومن تفكر اعتبر ومن اعتبر اعتزل ومن اعتزل سلم ومن ترك الشهوات كان حرا ومن ترك الحسد كانت له المحبه عند الناس ١٦٦.

يا بنى عز المؤمن فى غناه عن الناس والقناعه مال لا ينفد ومن اكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ومن علم ان كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه العجب ممن خاف العقاب فلم يكف ورجا الثواب فلم يعمل الفكر نور والغفله ظلمه والجهاله ضلالة والسعيد من وعظ بغيره الادب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين.

يا بنى ليس مع القطيعة نماء ولا مع الفجور غنى.

يا بنى العافيه عشرة أجزاء تسعه منها فى الصمت إلا عن ذكر الله تعالى وواحد فى ترك مجالسه السفهاء ومن تزين بمعاصى الله فى المجالس اورثه الله ذلا ومن طلب العلم علم .

يا بنى راس العلم الرفق ومن كنوز الايمان الصبر على المصائب العفاف زينه الفقراء والشكر زينه الاغنياء

يا بنى اغنى الغنى العقل وافقر الفقر الحمق واوحش الوحشة العجب واكرم الحسب حسن الخلق واياك ومصادقة الاحمق فإنه يريد ان ينفعك فيضرك وإياك ومصادقة الكذاب فإنه يقرب إليك البعيد ويبعد عنك القريب وإياك ومصادقة الكذاب فإنه يقرب إليك أحوج ما تكون إليه وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه

يا بنى كثرة الزيادة تورث الملال والطمأنينه قبل الخبره ضد الحزم وإعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله ١٦٧.

يا بنى كم نظره جلبت حسرة وكم كلنه سلبت نعمه لا شرف اعلى من الاسلام ولا كرم اعز من الزهد ولا معقل احرز من الورع ولا لباس اجمل من العافيه ولا مال اذهب للفاقة من الرضا بالقوت .

يا بنى الحرص مفتاح التعب ومطية النصب وداع إلى اقتحام الذنوب والشره جامع لمساوىء العيوب وكفاك ادبا لنفسك ما كرهته لغيرك لاخيك عليك مثل الذى لك عليه ومن تورط فى الامور من غير تبصر فى الصواب فقد تعرض لقدحات النوائب التدبير قبل العمل يؤمنك الندم من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ

يا بنى البخل جلباب المكنسه والحرص علامة الفقر ووصل معدم خير من جفاء مكثر لكل شىء قوت وابن آدم قوت الموت

يابنى لا تؤيسن مذنبا على ذنبه فكم عاكف على ذنب ختم له بالخير وكم مقبل على علمه افسده فى آخر عمره فصار إلى النار

يا بنى فى خلاف النفس رشدها الساعات تنتقص الاعمار ١٦٨.

ـ صفة الامام العادل للحسن البصرى:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى لما ولى الخلافة ان يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمهما الله ورضى عنهما

أعلم يا أمير المؤمنين أن الامام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعف ونصفه كل مظلوم ومفزع كل ملهوف والإمام العدل يا امير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد لها اطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكه ويحميها من السباع ويكنفها من اذى الحر والقر

الامام العادل يا امير المؤمنين كالاب الحانى على ولده يسعى مماته والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلا تسهر بسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة وتفطمه تارة وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته والامام العدل يا امير المؤمنين كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحة وتفسد بفساده والامام العدل يا امير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم فلا تكن يا امير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله ففرق ماله واعلم يا امير المؤمنين ان الله انزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف بها إذا أتاها من ١٦٩.

يليها وان الله انزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتصد لهم واذكر يا امير المؤمنين الموت وما بعده وقلة اشياعك عنده وانصارك عليه فتزود له ولما بعده

من الفزع الاكبر واعلم يا امير المؤمنين إن لك منولا غير منزلك الذى انت فيه يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه واذكر يا امير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور فالأسرار ظاهره والكتاب لا يغادر صغيرة ولا بيرة إلا أحصاها فالآن يا امير المؤمنين وانت فى مهل قبل حلول الاجل وانقطاع الامل لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون فى الله إلا ولا ذمة فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك وتحمل اثقالك وأثقالا مع اثقالك ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه يؤسك ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك لا تنتظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غدا وانت مأسور فى حبائل الموت وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكه والنبين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحى القيوم أنى يا أمير المؤمنين أن لم أبلغ بعظمتى ما ابلغه او لو النهى من قبلى لم آلك شفقة ونصحا فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الادويه الكريهه لما يرجو فى ذلك من العافية والصحة والسلام عليك ورحمه الله وبركاته

١٧٠

ـ نماذج من كلام عبد الحميد الكاتب:

ـ رسالة عبد الحميد إلى الكتاب:

اما بعد حفظكم الله يا اهل صناعه الكتابه وحاطكم ووفقكم وارشدكم فإن الله عز وجل جعل ملوك الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اصنافا وإن كانوا فى الخلقة سواء وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى اسباب معاشهم وابواب رزقهم فجعلهم معشر الكتاب فى اشرف الجهات اهل الادب والمروءات والعلم والرزانه بكم تنتظم للخلافه

محاسنها وتستقيم امورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم فموقعكم موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون وألسنتهم التى بها ينطقون وأيديهم التى بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمه عليكم .

ـ ومنها:

فتقاسموا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفهموا فى الدين وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرئض ثم العربية فإنها وثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فأنه حيلة كتبكم واروووا الاشعار واعرفوا غريبا ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم ولا تضيعوا النظر فى الحساب فإنه قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفاسف الامور ومحقرها فإنها مذله للرقاب مفسده للكتاب ونزهوا صناعتكم عن الدنايا واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات١٧٢. ١٧١

ـــ مقتطفات من كتاب " النثر الفني في القرن الرابع" لمؤلفه زكي مبارك:

نقد النثر الفني

ينبغي أن نقيد في صدر هذا الكتاب أن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية؛ فلسنا نجد في كتب النقد تلك الأبحاث المطولة التي يراد بها رد معاني الكتاب إلى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا في درس معاني الشعر وبيان المبتكر منها والمنقول، فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد في بيت من الشعر فيذكرون أجديدٌ هو أم قديم، ثم يذكرون مَن أُخِذ عنه إن كان قديمًا، ويبينون الفرق بين المعنى في صورته الأولى وبينه في صورته الثانية، وقد يزيدون فيذكرون الأدوار التي مر بها المعنى منذ عُرف عن الجاهليين، ويبينون درجات مَن تناوله من الشعراء.

وهذا الذي نقوله يبين وجهًا من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية؛ فالشعر في نظر النقاد من العرب أكثر حظًّا من الفن وأولى بالنقد والوزن، والنثر مهما احتفل أصحابه بإتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر، ولذلك قلَّت العناية بتقييد أوابده، والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والابتكار أو دلائل الضعف والجمود.[١]

وليس في اللغة العربية كتاب منثور شُغل به النقاد غير القرآن، على أن شُغْل النقاد بالقرآن لم يكن عملًا فنيًّا بالمعنى الصحيح للنقد الأدبي، فقد كان مفروضًا في كل من يكتب عن القرآن أن يُظهر عبقريته هو في إظهار ما خفي من أسرار ذلك الكتاب المجيد، وليس هذا من النقد في شيء، إنما النقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف الممتحن للمحاسن والعيوب، من أجل ذلك وُسم أكثر ما كُتب عن القرآن باسم الإعجاز؛ لأن النقاد اطمأنوا إلى أن القرآن هو المثل الأعلى الذي تقف عنده حدود الطبيعة الإنسانية في البلاغة والبيان.

فإذا خلينا القرآن جانبًا وانتقلنا إلى غيره من غرر النثر وجدنا البدائع النثرية قليلة الحظ من عناية النقاد، فنحن نستطيع أن نجد طائفة صالحة من المؤلفات تدور حول أبي تمام والبحتري ومسلم بن الوليد وفي نواس وبشار والمتنبي؛ بحيث نستطيع أن نجزم بأن الشعراء الكبار الذين شُغل بهم الناس كانوا سببًا في نشَاط النقد الأدبي، وإمداده بتلك الحيوية العظيمة التي ظهر أثرها في مثل مؤلفات أبي هلال العسكري وابن الأثير وابن رشيق وأبي الحسن الجرجاني، وغيرهم من فحول النقاد الذين شُغلوا بالموازنة بين الشعراء، ولكن قلَّ أن نجد أثرًا لمثل ذلك الاهتمام إذا شئنا أن نعرف ما صنع النقاد في الموازنة بين كاتبين كالبديع والخوارزمي، أو الصاحب والصابي، أو عبد الحميد وابن المقفع، أو الصولي وابن الزيات، أو ابن زيدون وابن شهيد، وغيرهم من الكُتَّاب الذين شغلوا معاصريهم من المتأدبين والناقدين.[٢]

وإيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة في البيئات العربية، فهذا أبو بكر الخوارزمي الذي كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه اهتم بحفظ الرسائل، حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هي كتاب الصاحب إلى ابن العميد جوابًا عن كتابه عليه في وصف البحر.[٣]

والواقع أن الشعر أقرب إلى النفس من هذه الناحية، وهو بالذاكرة أعلق، وعلى الألسنة أسْير، بفضل القوافي والأوزان.

ولنذكر هنا أن في كُتَّاب القرن الرابع من نظر في هذه المسألة وفاضل بين الشعر والنثر، وبين مقام الكُتَّاب ومقام الشعراء، وأهم ما لفت نظري في تحرير هذا الموضوع ما كتبه الثعالبي في تفضيل النثر، وما كتبه ابن رشيق ردًّا عليه في تفضيل الشعر. والثعالبي يبني حكمه على أن طبقات الكُتَّاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء؛ «فإن الكُتَّاب وهم ألسنة الملوك إنما يتراسلون في جباية خراج، أو سد ثغر، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى أُلفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية في رزية،

أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعاظم الشئون، التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة، ومعارف مقننة».[٤]

وهذا حق من جانب وخطأ من جانب آخر؛ هو حق من حيث تنويهه بفضل النثر في المصالح المعاشية والسياسية والإدارية؛ لأن النثر هو الأداة الصالحة للتفاهم في شئون الحرب والسلم والتجارة والزراعة والصناعة، وما إلى ذلك من شئون العمران، ولكنه خطأ من حيث يعطي للنثر جوانب هي أقرب إلى الشعر؛ فالدعاء إلى الألفة والنهي عن الفرقة والتهاني بالعطايا والتعازي في الرزايا من الموضوعات التي كان الشعر فيها أصلح أداة من النثر، وأقدر على تسجيل العواطف والأحاسيس، وامتلاك القلوب والنفوس.

والثعالبي صدق في نصه على أن ما يشتغل به الكُتَّاب يقضي بأن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة؛ فإنه يكاد يغلب على جمهور الشعراء في اللغة العربية فراغ الأفئدة وفقر الرءوس، والشعراء المتفوقون عند العرب هم الشعراء المثقفون الذين استطاعوا أن ينافسوا كبار الباحثين من أصحاب المذاهب وأرباب الأقلام، فأبو نواس وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وابن المعتز وابن الرومي وأبو تمام والبحتري والشريف الرضي والمتنبي، كل أولئك كانوا من أهل العلم الوافر العميق، وكانوا فوق ذلك أصحاب مطامع وأهواء في الملك والسياسة، وكانوا لا ينامون إلا على سر مبيَّت أو غرض دفين.

ونظرةٌ إلى شعراء العصر الحاضر تعطينا ما يؤيد هذه الفكرة؛ فالشعراء النابهون في عصرنا هم الذين لابسوا رجال الملك، واتصلوا بالجماهير اتصال استثمار واستغلال؛ فقد كان شوقي شاعر القصر، وكان حافظ شاعر الشعب، كما كان البارودي شاعر السيف، وقد خمل مَن خمل مِن الشعراء الذين قعدت بهم ثقافتهم، ووقفت بهم هممهم عند الإكفاء بمضغ الكلام الموزون!

والثعالبي بعد كلماته تلك يذكر في أسباب تقدير النثر على الشعر، أن الشعر تصوَّن عنه الأنبياء، وترفَّع عنه الملوك. وهي حجة واهية وسبب ضعيف، فالشعر أقرب

الفنون إلى أرواح الأنبياء، وأنا لا أتصور الأنبياء إلا شعراء، وإن جهلوا القوافي والأوزان؛ لأن الشعر الحق روحٌ صرف، والنبوة الحقة شعرٌ صُراح. أما الملوك فترفُّعهم عن الشعر لا يحط من قدره، ولا يغض من شأنه، والملوك لو استطاعوا أن يضموا إلى قواهم المادية تلك القوة الروحية لكان حظهم أوفى الحظوظ، ولكن شواغل الملك وتكاليف السياسة اليومية تصرف العقل والحس والخيال عن إجادة الشعر الذي يتطلب صفاء النفس وجلاء الوجدان.

وربما كان أظرف نقد وجِّه للشعر والشعراء ما قصه الثعالبي إذ قال: وقد أفصح عبد الصمد بن المعذل عن حقيقة الحال في انحطاط رتبة الشاعر لاشتغاله بخلاف المراشد، حيث قال لأبي تمام، وقد قصد البصرة وشارفها:

أنت بين اثنتين تبرز للنا س وكلتاهما بوجه مُذال
لست تنفك طالبًا لوصال من حبيب أو طالبًا لنوال

فلما بلغت الأبيات أبا تمام قال: صدق والله وأحسن! وثنى عنانه عن البصرة وحلف أن لا يدخلها أبدًا.[٥]

وهذه الأبيات التي قالها ابن المعذل تصور حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير، وقد رأيت أن أرجع بمناسبة هذه الأبيات إلى وصية أبي تمام للبحتري لأرى الأغراض التي كان يهتم بها مثل ذلك الشاعر البليغ، فلم أجده نصَّ على غير النسيب والمديح، إذ قال: «وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقًا، والمعنى رشيقًا، وأكثِر من بيان الصبابة وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مدح سيد ذي أيادٍ فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأَبِنْ معالمه، وشرف مقامه.»[٦]

فالشاعر على هذا الوضع لا يبرح دامع العين في سبيل الحب، أو قلق النفس في سبيل المال، وحياته إذن مقسمة بين ذلين: ذل الهوى وذل السؤال.

غير أنه ينبغي ألا نفتن بهذا الكلام فتنة باقية، وأن نفهم أن جماله يرجع إلى أنه سخرية تدل على براعة وذكاء، فإنه إن جاز لنا أن نلوم الشعراء على إسفافهم حين

يطمعون في عطايا الملوك، فإنَّا لا نستطيع أن نأخذ عليهم أن تُفْتَن عيونهم بالحسن، وأن تخفق قلوبهم بالوجد، فإن للشاعر رسالة يؤديها إلى العالم؛ هي فهمه العميق لأسرار الجمال، ثم غناؤه الساحر في تقديس الحسن المصون، والشاعر الملهم حين يفهم المعاني الروحية لصباحة الوجوه، وأسالة الخدود، ورشاقة القدوم، يعود وهو قيثارة إلهية يمضي رنينها ساحرًا أخَّاذًا لا يملك الغض منه إلا صُمُّ السامع أو غُلْف القلوب.

أما ابن رشيق فيفضل الشعر على النثر لأسباب فنية، وهو يذكر أن كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور، ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة ورديئة، وفي رأيه أنه إذا اتفقت الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرًا في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، فالدر — وبه يشبَّه اللفظ — إذا كان منثورًا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي كسب له وانتحت من أجله، وكذلك اللفظ إذا كان منثورًا تبدد في الأسماع، فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت فرائده.[٧]

وهذا كلام ضعيف لا يتناسب مع عقل مثقفٍ كعقل ابن رشيق؛ لأنه إذا صح أن يشبَّه الشعر بالعقد المنظوم، فإنه لا يصح أن يشبَّه النثر بالدر المنثور؛ لأن النثر منظوم أيضًا، والكاتب يؤلف بين الكلمات ويزاوج بين الألفاظ بنفس الدقة التي يعنى بها ناظم العقد، واللؤلؤ المنثور له قيمته دائمًا؛ لأن اللؤلؤة هي هي في قيمتها ونفاستها، ولن يضيرها أن تسقط من بين حبات العقد وأن تقع حيث يشاء الإغفال، أما اللفظة فتفقد قيمتها الأدبية وهي منفردة؛ إذ كان سحرها يرجع إلى موقعها من التركيب بلا فرق بين الشعر والنثر.

وقد نص عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز على أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرَّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له

بصريح القول. وذكر أننا نرى الكلمة تروق وتؤنس في موضع، ثم نراها تثقل وتوحش في موضع آخر، وأننا قد نرى رجلين استعملا كلمًا بأعيانها ثم نرى هذا قد فرع السَّماك، ونرى ذاك قد لصق بالحضيض.[٨]

على أنه يخيل إليَّ أن تقديم الثعالبي للنثر كان أثرًا لغرض شخصي، فلا يبعد أن يكون خوارزم شاه الذي قدَّم إليه «نثر النظم وحل العقد» كان من هواه أن يقدِّم النثر على الشعر؛ إيثارًا لبعض الكُتَّاب، أو حقدًا على بعض الشعراء. وهذا الذي نقوله ليس بغريب من كُتَّاب ذلك العصر، فعهدي بهم يصورون الحقائق حسبما توحي الأهواء، حتى إننا نجد ابن رشيق الذي فضل الشعر على النثر يقول: «ولم أهجم بهذا الرد وأورد هذه الحجة لولا أن السيد — أبقاه الله — قد جمع النوعين، وحاز الفضيلتين، فهما نقطتان من بحره، ونوارتان من زهره.»[٩] فهذه الفقرة صريحة في أن أحكامه تتأثر بأهواء من يعاشر من الرؤساء.

وأبو هلال العسكري أكثر دقة من الثعالبي في الكلام على الشعر والنثر، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظ والفواصل؛ فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكُتَّاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافَه بها، والرسالة يكتَب بها، والرسالة تُجعل خطبة، والخطبة تُجعل رسالة في أيسر كلفة، ولا يتهيأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلا بتكلف، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعرًا إلا بمشقة.[١٠]

هذا فهم في هلال للنثر والشعر من الوجهة الفنية، أما من الوجهة الاجتماعية فالنثر في رأيه عليه مدار السلطان، والشعر يغلب عليه الزور والبهتان، وليس يرد من الشاعر إلا حسن الكلام، أما الصدق فيطلب من الأنبياء.[١١]

وفضل الشعر على النثر — عند أبي هلال — يرجع إلى استفاضته في الناس، وبُعد سيره في الآفاق، وإلى تأثيره في الأغراض والأنساب، وإلى أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، وإلى أن مجالس الظرفاء والأدباء لا

تطيب ولا تؤنس إلا بإنشاد الأشعار، وإلى أن الشعر أصلح للألحان التي هي أهنى اللذات، ولا تتهيأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر، فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة.١٢

قال أبو هلال: ومن صفات الشعر التي يختص بها دون غيره، أن الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتًا من الشعر احتُمِل، ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه إليه وشهرته في حبه وبكاه من أجله؛ لاستُهْجِن منه ذلك وتنقص به فيه، ولو قال في ذلك شعرًا لكان حسنًا.١٣

وهذا كلام يحتمل النقض، فإن مدح الرجل نفسه، إن جرى مجرى الدفاع والمفاخرة، صح وقوعه في النثر، وشواهد ذلك كثيرة من خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم، فليست خطب علي بن أبي طالب في جملتها إلا إشادة بشرفه وتنويهًا بقربه من الرسول، أما الفخر الذي يجري مجرى الزهو والخيلاء فهو مردود في الشعر والنثر، وإن كان الشعر أصلح الفنين للتغني بكرم الأعراق وشرف الأحساب.

أما الغزل فمن الحق أن الشعر أولى به؛ لأن الغزل غناء، والشعر أقرب إلى الأنين والرنين، ولكنَّا لا نجد بُدًّا من الإشارة إلى أن من الكُتَّاب من اتخذ النثر أداة تشبيب فوقع تشبيبه موقع القبول، وفي رسالة الجاحظ إلى إبراهيم بن المدبر،١٤ ورسالة إسحاق بن إبراهيم إلى علي بن هشام،١٥ وما نقله صاحب زهر الآداب في الجزء الأول والثالث من وصف النساء والغلمان ورسائل الشوق دليل على أن النثر يصلح أيضًا للمعاني الغرامية، ولا معنى لتضييق المجال أمام الكُتَّاب بمثل ذلك الاصطلاح، ولكن هيهات أن تنجو الحياة الأدبية أو الاجتماعية من أثقال التقاليد التي تسيطر على الذوق، وتجعل مقياس القبح والحسن تابعًا لما أَلِف الجمهور من ملابسات الحياة.

بعد هذا البيان أحب أن أدون رأيي في الفرق بين منزلة الشعر ومنزلة النثر، وهو رأي لم أُسبَق إليه: رأيي أن الموضوعات هي التي تحدد نوع الصياغة، فليس ينبغي

أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع، ولا أن النثر صالح لكل موضوع؛ فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر، والبليغ الموَّفق هو الذي يفهم سياسة الفطرة في مثل هذه الشئون، ففي بعض الأحوال يكون الإفصاح بالشعر نوعًا من العيِّ، كما يكون أحيانًا أسمى أنواع البيان، وقد أذكر أنني كنت أحاور المسيو مرسيه في تطور السجع فأخرج رسائل الجاحظ وفيها هذه العبارة:

إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملى كتابًا إلى رجل فقال فيه: لهو أهون عليَّ من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة.» ثم قال: امحُ (من كلاب الحرة) واكتب: (من الكلاب)، كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع، وأرى أنه ليس في موضعه.١٦

وكان المسيو مرسيه يظن أن في هذه العبارة دلالة على أنهم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع، فوجهت نظره إلى أن لهذه العبارة معنى آخر: ذلك أن السجع فن رقيق، لا يصلح في مثل ذلك المقام، وهو مقام تهديد ووعيد.

وفهم الظروف وما تقتضيه من شعر أو نثر هو أساس التوفيق عند من يفرض عليهم القول، فكم موطن يظهر فيه الشعر غريبًا، وكم موطن تظهر فيه الرسائل والخطب وكأنها بعيدة عما يجب أن يقال، ولو تتبعنا آثار الكُتَّاب الذين مُنِحوا موهبة الشعر لرأيناهم يجنحون إلى القريض في مواضع لا يغني فيها النثر شيئًا، فبديع الزمان يمضي في رسائله ومقاماته ناثرًا، ثم ينتقل إلى الشعر فجأه حيث يرى الشعر أقرب إلى ما يريد، وقد رأينا عبد العزيز بن يوسف يراسل الصاحب بن عباد فيبدأ خطابه ناثرًا، ثم يميل إلى النظم، ولا يفوته أن يعلل ذلك الميل فيقول: «ابتدأت — أطال الله بقاء مولاي الصاحب — بكتابي هذا وفي نفسي إتمامه نثرًا، فمال طبعي إلى النظم، وأملى خاطري على يدي منه ما كتبت، ونعم المعرب عن الضمير مضمار القريض.»١٧

قلنا: إن الموضوعات هي التي تحدد نوع الصياغة، فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول: إذا كان موضوع القول متصلًا بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب؛ لأن لغته أقدر على التأثير والإمتاع، وإذا كان الموضوع متصلًا بأعمال العقل والفهم والإدراك كان النثر أوجب؛ لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع، ومن أجل ذلك نرى الفقهاء واللغويين والنحويين ورجال العلوم الصرفة كالفلكيين والرياضيين لا يجيدون الشعر إلا قليلًا؛ لأن اتجاهاتهم العقلية تصرفهم عن تلقي الوحي والإلهام؛ إذ كان الشعر في صميمه ينفر من النفوس المعقدة ويأنس بالنفوس الصافية التي تسيطر عليها القوة أو الوداعة، وتغلب على أصحابها الثورة أو السكون، ولا يفهمون من العالم إلا جوانبه الأخاذة التي تصرخ بالعظمة البالغة، أو ترمي بالقلب في سعير الحب وفتنة الجمال.

ونعود فنذكر أن كُتَّاب القرن الرابع كان يغلب عليهم الشعر، فكانوا يلجئون إلى القريض في المواطن التي لا يحسن فيها غير القريض، وحِرْص كُتَّاب القرن الرابع على إجادة الشعر يدل على مغالاتهم في الصنعة، فإن الشعر أدخَلُ في الفن من النثر، ولكن ليس معنى هذا أنهم كانوا جميعًا من الشعراء المتفوقين، كلا! فإن عبد العزيز بن يوسف الذي كان يقرنه الصاحب الى الصابي لم يكن جيد الشعر، والقطع التي وصلت إلينا من شعره باردة الأنفاس، والتوحيدي أُثِر عنه شعر قليل، وهو مع قلته ضعيف.

وهناك كُتَّاب كان شعرهم أجود من نثرهم، وكانوا من المبرزين في الصناعتين؛ منهم أبو العلاء المعري صاحب اللزوميات وسقط الزند، وهما من دواوين الشعر الممتازة في اللغة العربية، وصاحب رسالة الغفران التي تعد من آيات النثر العربي؛ ومنهم الشريف الرضي وهو من أفذاذ الشعراء، وينسب إليه جزء كبير من نهج البلاغة؛ ومنهم أبو عامر بن شهيد أحد كُتَّاب الأندلس وشعرائها، وهو من أفراد المجيدين في المنظوم والمنثور، والشعر عليه أغلب.

أما الكُتَّاب الذين غلب عليهم النثر وكان لهم مع ذلك شعر جيد، فهم عديدون؛ منهم علي بن عبد العزيز الجرجاني، وأبو بكر الخوارزمي، وأبو الفضل بن العميد، وأبو إسحاق الصابي، وبديع الزمان الهمذاني، وأبو إسحاق الحصري،[١٨] وأبو الفرج الببغاء، وهؤلاء كانوا يجيدون الشعر إجادة تامة في موضوعات لا يحسن فيها غير القريض.

ولنذكر نماذج من شعر هؤلاء الكُتَّاب لندل على تفوقهم في الصناعتين تفوقًا يجعل منزلتهم في النثر الفني أعلى وأرفع؛ إذ كان النثر عند هؤلاء فنًّا خالصًا لا يفضله الشعر بغير القوافي والأوزان.

فمن ذلك قول ابن العميد في معشوقه وقد فُصِد:

ويح الطبيب الذي جست يداه يدكْ ما كان أجهله فيما قد اعتمدكْ
بأي شيء تراه كـــان معتذرًا من مسه بحديد مؤلم جسدكْ
لو أن ألحاظه كانت مباضعه ثم انتحاك بها من رقة فصدكْ

وقال الصاحب بن عباد في رجل كثير الشرب بطيء السكر:

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما توالت عليه من نداماه قرقُف
فقلت سبيل الخمر أن تنقص الحجا فإن لم تجد عقلًا فماذا تحيَّف

وقال بديع الزمان في طبائع الناس:

كذاك الناس خدَّاعُ إلى جانب خدَّاعِ
يعيثون مع الذئب ويبكون مع الراعي

والقلقشندي من الذين رجحوا النثر على الشعر، فقد ذكر في كتابه «صبح الأعشى» أن الشعر وإن كانت له فضيلة تخصه من حيث تفرده باعتدال أقسامه، وتوازن أجزائه، وتساوي قوافيه، مع طول بقائه على تعاقب الأزمان، وتداوله على ألسنة

الرواة؛ لسهولة حفظه، وجمال إنشاده بمجالس الملوك، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقامًا، وأحسن نظامًا.١٩

والنظام الذي يظهر حسنه في النثر غير واضح، ولكن القلقشندي يفسره فيذكر أن الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معهما إلى زيادة الألفاظ، والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود، ومد المقصور، وصرف ما لا ينصرف، ومنع ما ينصرف من الصرف، إلى غير ذلك مما تلجئ إليه ضرورة الشعر، فتكون معانيه تابعة لألفاظه، والكلام المنثور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك، فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه.

وتفسير القلقشندي لرأيه غير كافٍ ولا سديد؛ فإن الشعر الذي نوازن بينه وبين النثر ليس هو الشعر الذي تكون معانيه تابعة لألفاظه، وإنما هو الشعر المحكم الذي تكون فيه الألفاظ دائمًا تبعًا للمعاني، والنظم الجديد يفرض ذلك في الشعر والنثر على السواء.

ومما تنبه له القلقشندي خطر الموضوعات التي يعرض لها النثر؛ حيث يراه مبنيًّا «على مصالح الأمة وقوام الرعية» لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك، وسراة الناس في مهمات الدين وصلاح الحال، وما يلتحق بذلك من ولايات السيوف وأرباب الأقلام.٢٠

ونقل القلقشندي عن «مواد البيان» أن العرب كانت أحسَّت بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام المنثور، كما حُكِي أن امرأ القيس بن حجر همَّ أبوه بقتله حين سمعه يترنم في مجلس شرابه بقوله:

اسقيا حجرًا على علاته　　من كُمَيت لونها لون العلق٢١

وما رُوي أن النابغة الجعدي كان سيدًا في قومه لا يقطعون أمرًا دونه، وأن قوْل الشعر نقصه وحط رتبته.٢٢

ونحن نرى مسألة امرئ القيس تحتاج إلى تأويل، أما مسألة النابغة الجعدي فصحيحة من حيث دلالتها على بعض التقاليد الاجتماعية، وقد تحادثْتُ مرة مع الأستاذ إبراهيم مصطفى في مثل هذا الموضوع، وكنا نتكلم عن شخصية الأستاذ محمد نجيب الغرابلي باشا، وكان الأستاذ إبراهيم مصطفى يرى أن اهتمام الغرابلي باشا بقرض الشعر يحط من قيمته كزعيم سياسي، ولم أفلح في إقناع صديقي إبراهيم بأن الشعر قد يكون من مميزات كبار الرجال.٢٣

وخلاصة هذا الفصل أن التأليف في نقد النثر كان قليلًا بالإضافة إلى التأليف في نقد الشعر، ويرجع ذلك إلى أن القدماء كانوا يرون الشعر أرفع فنون الجمال، أما النثر فكان في نظرهم أداة من أدوات التعبير عن الأغراض العلمية والسياسية والدينية، ولذلك كانوا حين ينقُدونه يتوجهون في الأغلب إلى ما فيه من معانٍ وأغراض قبل أن يعنوا بالنظر في أساليب الإنشاء؛ ظنًّا منهم أن الدقة لا تُطلب إلا من الشعراء.

ونحن نرى أن الوقت حان للعناية بالنثر ونقده وإحلاله المحل الأوَّل من جهود الباحثين والناقدين، فإن النثر اليوم هو صاحب السلطان في المشرق والمغرب، والكُتَّاب يحتلون اليوم مكانة يصعب أن يتسامى إليها الشعراء؛ لأن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد، وزماننا مجنون بالسرعة في كل شيء، والشعر — كفنٍّ دقيق مثقل بالقوافي والأوزان — غير خليق بتقديم ما تحتاج إليه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلي والوجداني، وهو حين يجود يظل مقصورًا على بعض النوازع القلبية والنفسية التي لا تستريح إليها الجماهير إلا في لحظات الفراغ.

وليس معنى هذا أن الشعر زالت دولته، لا، فإنه لا تزال لدينا جوانب وجدانية تتشوف إلى التغني بالشعر البليغ؛ لأن الطبيعة لا تزال تتألق في خلق دواعي الشعر، ولا يزال في الدنيا نجوم تتألق، وأزهار تتفتح، ولا تزال الأرض تذلل خدها لمن يمشي عليها من أسراب الظباء.

وإنما نريد أن نَقْدِر النثر حق قدره، وأن نبين مناهجه ومذاهبه ممثلة في كُتَّاب القرن الرابع؛ لأنه في رأينا أوَّل عصر في اللغة العربية أراد فيه الكُتَّاب أن يستبدوا بمعاني الشعراء وألفاظهم وتعابيرهم، وأن يروضوا القلم الطليق على التحليق في جميع الأجواء.

وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن أول ما يهمنا هو المعاني والأغراض، وليست الألفاظ والتعابير إلا وسائل لتجلية المعاني وكشفها وتوضيحها؛ بحيث يستطيع القارئ أن يشارك الكاتب في حسه وشعوره، وذوقه ووجدانه، وضلاله وهداه، ومن أجل هذا اهتممنا اهتمامًا بالغًا بتحليل آراء الكُتَّاب ومذاهبهم الاجتماعية، واتجاهاتهم العقلية، وثوراتهم النفسية والوجدانية، ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الكاتب (écrivain) كاتبًا؛ أي رجلًا قديرًا على تلوين أفكاره وخواطره تلوينًا يستهوي العقول والألباب، فليس كل مفصح عن غرضه بقادر على جذبنا إليه، وإنما يستميلنا الكُتَّاب الفنانون الذين يجمعون بين جودة المعنى وجمال الأداء.

ـــ النثر الجاهلي:

هل كان للعرب نثر فنيٌّ في عصر الجاهلية؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والأمثال؟

لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبيٌّ ولا سياسيٌّ قبل عصر النبوة، وأن الإسلام هو الذي أحياهم بعد موت، ونبَّههم بعد خمول.

وهذا الاتفاق يرجع إلى أصلين: فهو عند مؤرخي الإسلام من المسلمين تأييد لنزعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذي خلق العرب خلقًا وأنشأهم إنشاء؛ فنقلهم من الظلمات إلى النور، ومن العدم إلى الوجود، وهو عند مؤرخي اللغة العربية وآدابها

يرجع إلى الشك في كثير من النصوص الأدبية التي أُثِرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وأسجاع وأمثال.

وقد وقع للأستاذ خليل مطران وهو يحاور الدكتور محمد هيكل في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ أن أشار إلى أن مجموعة الأدب التي أُثِرت عن الجاهليين لم تكن تزيد عن كراس، وأنها على ضآلتها كانت مغنية في تثقيف الأدباء لذلك العهد، أمثال: علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب. وهذا خطأ من الأستاذ مطران، فإن الثقافة التي ظهر أثرها في خطباء العرب لعهد النبوة كانت تشهد بوجود مجموعات كثيرة جيدة من الشعر والنثر والخطب والأمثال.

وهناك رأي مثقل بأوزار الخطأ والضلال، وهو رأي المسيو مرسيه ومن شايعه كالدكتور طه حسين، وذلك الرأي يقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون (Primitif) عيشة أولية، والحياة الأولية لا توجب النثر الفني؛ لأنه لغة العقل، وقد تسمح بالشعر؛ لأنه لغة العواطف والخيال، وهذا الرأى أعلنه المسيو مرسيه في المحاضرة التي افتتح بها دروسه في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام، ثم أذاعه مطبوعًا في كراس خاص،[١] وقد اختطف الدكتور طه حسين هذا الرأي وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية، ثم أثبته في كتاب «المجمل» الذي اشترك في وضعه للمدارس الثانوية.[٢]

وكان ينتظر أن يتنبه المسيو مرسيه ومشايعه الدكتور طه حسين إلى أن العصر الذي وسموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد، وفي ذلك العصر كان النثر الفني موجودًا عند أكثر الأمم التي جاورت العرب أو عرفوها؛ كالفرس والهنود والمصريين واليونانين، وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثر فني قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون، كأن العرب انفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال.

والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب في العصر الجاهلي، وينكر إنكارًا مطلقًا أن يكون هناك نثر فني كالذي يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة، أو دفع شبهة، أو إيضاح

مشكلة، وفاتَه وفاتَ أشياعَه أن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبي — عليه السلام — حتى يُتَّهم بأنه لفَّق القرآن مما نُقِل إليه من علوم الأولين وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (سورة العنكبوت: ٤٨).

وكانت حجة المسيو مرسيه التي واجهني بها في صيف سنة ١٩٢٨ أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدوِّنت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن في آثار الهند والفرس والروم، وقد أجبته يومذاك بأن فقدان تلك الآثار لا يكفي لإنكار أنه كان لها نصيب من الوجود، على أن في القرآن الكفاية، وهو أثر جاهليٌ كما سنبينه بعد قليل.

وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية، وقلة التدوين، وبُعدُ ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام ودوَّنها القرآن.

وما نقله الرواة من النصوص لا يكفي لتعيين أساليب النثر في العصر الجاهلي، وبيان الاتجاهات العقلية التي كان يرمي إليها الكاتبون إذ ذاك، وهو على قلته مما وضع في العصر الأموي وصدر العصر العباسي لأغراض دينية وسياسية، وهو لهذا لا يعيِّن مدرسة نثرية، ولا مذهبًا اجتماعيًّا، ولا رأيًا عامًّا، وإنما يعيِّن أذواق واضعيه، ومذاهبهم السياسية واتجاهاتهم الدينية.

ومن أمثلة ذلك حديث خنافر الحميري، وهو منقول عن ابن الكلبي، ومثبت في الجزء الأول من الأمالي،[٣] وهو حديث مختلَق وُضع بعد الإسلام، وقد أضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهلي مع أنه قيل — على فرض صحته — في عصر النبوة؛ لأنني أدخل تلك الفترة في الجاهلية؛ إذ لم يكن الإسلام استطاع أن يمحو الآثار التي سبقته في الشعر والكتابة، وأن يبدع مناهج جديدة للإنشاء والتفكير تغاير مذاهب الجاهليين.

والذي وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبي إلى الجنِّ، وهي رسالة لا نعرض لها برفض أو قبول، وإنما نقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعينًا في سبيل الوصول إليها بمحاكاة اللغة اليمنية، فذكر «الزخيخ»، و«الهوب» بدل النار، و«الواهر» بدل الساكن، و«الجحمتين» بدل العينين، ليوقع في روع القارئ صحة الرواية، مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية في ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لا تخالفها إلا في بعض الألفاظ.

وكل ما يمكن استخلاصه من مثل هذا الحديث هو اطمئنان الرواة إلى أن لغة الكهان كانت مسجوعة، وأنه كان من المألوف أن يتبع النثر بشيء من الشعر، ولهذا قيمته في تصوُّر حالة النثر الفني في العصر الجاهلي، وإن لم يصل بنا إلى تحديد ما كان عليه من قوة أو ضعف، ووضوح أو غموض.

والحكم الذي أجريناه على حديث خنافر هو الحكم الذي نقضي به في تقدير خطبة قس بن ساعدة الإيادي، وهي الخطبة التي زعم الرواة أنه تنبَّأ فيها بظهور الرسول، وهي بلا شك خطبة وضعت لإيهام الجمهور أن نبوة محمد كانت مما يجري على ألسنة الخطباء الموفقين من أصحاب الحكمة في عهد الجاهلية، وهي كذلك خطبة مسجوعة ختمت بقطعة من النثر على نمط الحديث المنسوب إلى خنافر بن التوءم الحميري.

ومن أهم ما نُسب إلى العصر الجاهلي من آيات النثر الفني خطب وفود العرب عند كسرى، وهي خطب طويلة فصيحة مثبتة في الجزء الأول من العقد الفريد،[٤] وأنا أرى أن هذه الخُطب منحولة وضعها الرواة بعد الإسلام لأغراض سياسية، حين أرادوا أن يثبتوا فضل العرب في الجاهلية، وأنهم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسيف واللسان، وأكبر الظن أنها وُضعت في العصر الإسلامي، فإن لغتها تشابه تام المشابهة للُّغة التي كتبت بها مشاورة المهدي لأهل بيته في بغداد سنة ١٧٠،[٥] ويكفي أن يرجع الباحث إلى نصوص تلك الخطب وهاته المشاورة ليقتنع بأن التشابه بين الأثرين بَيِّنٌ واضح من حيث الألفاظ والتعابير والأسلوب.

وتدلنا خطب الوافدين على كسرى على تصور العرب بعد الإسلام لما كان عليه أسلافهم من المنعة وقوة الجانب، وما أحبوا أن يصفوهم به من الثورة على كسرى والتأهب لمقاومته والخروج على سلطانه، وهي في جملتها صورةٌ لشمائل العرب وعاداتهم وأخلاقهم وطباعهم، وتفسيرٌ لما أُخِذ عليهم من الشذوذ في بعض الأوضاع الاجتماعية.

ويؤيد ما ذهبت إليه من أنها كتبت بعد الإسلام أننا نجد الكلام الذي فاه به كسرى موضوعًا في لغة تماثل تمام المماثلة لغة أولئك الخطباء، مما يدل على أن يدًا تعمدت تحرير ما جرى في تلك الوفادة، ولسنا نستطيع إثبات أن ذلك كان في الجاهلية؛ فليس لدينا ما نعرف به كيف كان النعمان ينظم ديوان التحرير في قصره،[٦] ولكننا نعرف أن العرب بعد الإسلام نظموا دواوين الرسائل، وأعدوا لكل فن من فنون الكتابة رجالًا أخصائيين، ولذلك تجد مشاورة المهدي لأهل بيته مثلًا ختمت بهذه العبارة:

وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد.

والذي قلناه في خطب الوفود يمكن أن نقوله في أكثر القصص والمحاورات التي نسبت إلى أهل الجاهلية، وتكلف واضعوها أن ينشئوا لها من الشعر، وأن يضيفوا إليها من الأمثال ما يتناسب مع الغرض الذي وضعت له والظَّرف الذي قيلت فيه.

والنتيجة أننا لا نستطيع أن نعطي النثر الفني في العصر الجاهلي لونًا نطمئن إليه؛ لأن أكثر ما نُسب إلى الجاهليين غير صحيح، ومؤرخو الآداب مطمئنون إلى أن الشعر بقي منه أضعاف ما بقي من النثر؛ لأن الشعر موزونٌ مقفًّى يسهل حفظه، ولأن أكثره قيل في حوادث مشهودة ساعدت على ترديده، ولأن التدوين كان قليلًا جدًّا فلم يحفظ به من النثر إلا اليسير،[٧] على أن في القدماء من ارتاب في صحة أكثر الشعر الجاهلي؛ مثل محمد بن سلام، وفي المحدَثين من يكاد يرفضه كله؛ كالدكتور طه حسين.

وإذا كان الشعر الجاهلي مهددًا بمثل هذا الرفض مع اتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع عناية الرواة والحُفَّاظ والناسخين، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نُسب إلى الجاهليين من النثر مع أن عناية الراوة به كانت قليلة، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم لقلة التدوين، وكانت لهم شهرة مستفيضة جدًّا مثل سحبان وغيره من الخطباء الذين حدَّثنا عنهم الجاحظ وغيره ممن عُنوا بتدوين أصول الآداب.

قلنا: إنه كان للعرب نثر فني في الجاهلية، ثم عدنا فأثبتنا أن شواهد ذلك النثر ليست صحيحة؛ لأنها في جملتها من صنع الرواة، فكيف يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب نثر فني قبل الإسلام؟

فليعلم القارئ أن لدينا شاهدًا من شواهد النثر الجاهلي يصح الاعتماد عليه وهو القرآن.

ولا ينبغي الاندهاش من عدِّ القرآن أثرًا جاهليًّا، فإنه من صور العصر الجاهلي؛ إذ جاء بلغته وتصوُّراته وتقاليده وتعابيره، وهو — بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات أدبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلي، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتَّاب والخطباء.

وقد قدَّمت هذا الشاهد للمسيو مرسيه الذي يرى أن النثر الفني يبتدئ بابن المقفع، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يهتدِ إلى الآن، أما الدكتور طه حسين فقد اهتدى إلى مخرج لطيف، وذلك إعلانه أخيرًا في دروسه بالجامعة المصرية أن القرآن لا هو شعر ولا نثر، وإنما هو قرآن.[٨]

وقد بلغني عنه هذه الكلمة وأنا في باريس، فحسبته يمزح، والمزاح مما يُباح! فلما عدت راجعته فوجدته يصرُّ على أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شعر ونثر وقرآن. وقد حسب الدكتور طه أنه ينجو بهذا التأويل! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه

من قدم النثر الفني عند العرب، وأن لا يستكثر علينا أن ننقض بعض ما يرى المستشرقون، وهم يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية، وإنما أخذوا طرائق النثر الفني عن الفرس واليونان.[٩]

القرآن شاهد من شواهد النثر الفني، ولو كره المكابرون، فأين نضعه من عهود النثر في اللغة العربية؟ أنضعه في العهد الإسلامي؟ وكيف والإسلام لم يكن موجودًا قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب!

فلا مفرَّ إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطي صورة صحيحة من النثر الفني لعهد الجاهلية؛ لأنه نزل لهداية أولئك الجاهليين، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون، والنبي جاء لإرشاد قومه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر في الحدود التي رسمها الدين الحنيف، ولم يكن القرآن إلا أداة لنشر الرسالة الكريمة التي أعزت العرب بعد ذل، وهدتهم بعد ضلال.

وفي القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (إبراهيم: ٤)، وتلك إشارة نلوح بها لمن لا يكفيهم المنطق، وإلا فكيف يعقل أن يحدِّث النبي قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد إلى الإغراب في الألفاظ والتعابير، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان.

إنه لواضح أن اللغات يتميز بعضها عن بعض بشيئين اثنين: اللفظ والتعبير، وقد تتحد طائفة من الألفاظ في بعض اللغات كما يقع ذلك في العربية والتركية والفارسية والعبرية والهندية، ثم لا يقال: إن وحدة الألفاظ تقتضي وحدة اللغات؛ لأن سر اللغة هو في طريقة الأداء لا أعيان الألفاظ، ومن هنا صح لك أن تنظر في صفحة من كتاب تركي فتجد ثلاثة أخماسها مفردات عربية ثم لا يغنيك ذلك في فهم ما أفصح عنه الكاتب من المعاني والأغراض.

وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أصدق فهم، ووصل إلى قرارة نفوس المؤمنين فملأها روحًا ويقينًا، واستثار الدفائن من صدور المشركين فأعلنوا ما في قلوبهم من غيظ وما في رءوسهم من عناد، أفكان شيء من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها أهل الجاهلية؟

القرآن ليس بشعر؛ لأنه خالٍ من القوافي والأوزان، وهذا موضع اتفاق.

ولكن أيمكن القول بأنه ليس بنثر أيضًا كما يتوهم الدكتور طه حسين؟ وليت شعري! لمن يقال هذا الكلام؟! أيقال لرجال الدين؟ وكيف وهذه مسألة لغوية لا دينية، وليس في أصول الدين ما يقهرنا عن القول بما لم يقل به أحد من علماء اللغات! أيقال لمؤرخي اللغة العربية؟ وكيف وهم متفقون على أن القرآن كلام منثور، وإن تفرد ببعض الخصائص والمميزات!

أيقال: إن الكتاب العزيز لا هو شعر ولا هو نثر، وإنما هو قرآن لتصدَّق أوهام من يقولون بأن العرب لم يكن لهم نثر فني قبل الإسلام؛ لأن النثر الفني لغة العقل، وأولئك قوم كانوا يحيون حياة أوَّلية لا تبيح لأمثالهم غير التغني بعواطف الأطفال؟!

إذا كانت ميزة النثر الفني أنه أداة لشرح الحقائق التي توحي بها العقول، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لكثير من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية التي كانت تغزو أفئدة العرب في الجاهلية؟ أو من ذا الذي يرتاب في أنه خاطب العرب باسم العقل لا باسم الخيال؟

ومن موجبات الغلط عند الدكتور طه حسين أنه يرجع كلمة قرآن إلى أصلها في اللغة السريانية، فهي هناك معناها الجهر، وهو يؤكد أنه لذلك كان المسلمون في الصدر الأول يجهرون بتلاوة القرآن.

وهذا منطق لا قيمة له، وكان يصح لو أن القرآن كان مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها المسلمون في أعقاب الصلوات، وكيف والقرآن لم يكن مما أُنشئ للتسبيحات والتهليلات كما هو العهد بكثير من الكتب الدينية، وإنما نزل لدفع عادية المشركين

ونقض أوهام النصارى واليهود، وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتمل على سور قصيرة مسجوعة صالحة للتلاوة في سبيل الدعاء والابتهال.

وأنا مع هذا أقرر أن القرآن — بالرغم من وضوح لغته وقربها أشد القرب من الآثار العربية لعهد الإسلام — يُعدُّ أثرًا أدبيًّا يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التي جاءت بعده، ويتفرد بالصفات الآتية:

- **أولًا:** خُلُوه من الشعر الموزون خلوًّا تامًّا، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر؛ فقد كان يمزج غالبًا بأبيات من الشعر تأتي في أثناء الرسائل، وقد تكون فاتحة أو خاتمة.
- **ثانيًا:** نظام الآيات الذي يسمح في الغالب بوقف كامل يستريح عنده نفَس القارئ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذي أُثِر عن الجاهليين وشاع بعد الإسلام.
- **ثالثًا:** ضرب الأمثال وسَوق القصص، وهي طريقة لم تعرف إلا قليلًا في الآثار الأدبية لتلك العصور، والقرآن يستبيح تكرار القصة الواحدة كلما دعت مناسبة في تصرف قد يكون قليلًا في كثير من الأحيان.
- **رابعًا:** الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل: (الم، حم، طسم، الر، ص، ن، ق) إلى آخر تلك الفواتح التي اختلف في تأويلها المفسرون، والتي لم يهتدِ أحد إلى المراد منها بالتحديد، وهذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص الأدبية الجاهلية، ولا الإسلامية.[١٠]
- **خامسًا:** يظهر أن القرآن نُظِم نظمًا غنائيًّا، وأن ترتيله كان ملحوظًا في أوضاعه النثرية، بدليل أن كثيرًا من الآيات تنتهي قبل أن ينتهي المعنى المطلوب، وترتيل القرآن والتغني به كان معروفًا في صدر الإسلام، ولكننا لا نعرف كيف كانت قوانين التغني به من الوجهة الموسيقية، لذلك ندهش حين نرى في سورة المدثر — مثلًا — أن الآية الحادية والثلاثين تزيد عن الآية الثلاثين والثانية والثلاثين أكثر من عشرين مرة، ولا حلَّ لهذا الإشكال إلا ما نلمحه في الآيات الطوال من الإشارات التي تبيح الوقف القصير، على أن

في هذا نفسه دلالة على أن المعنى هو الأساس في نظم القرآن، وأن الغناء لا يقع إلا نافلة في صياغة الآيات.

- **سادسًا:** لا يلتزم القرآنُ السجعَ، فقد نجد سورًا قصيرة مسجوعة، وقد نجد صحفًا مسجوعة من السور الكبار، ولكن ذلك لا يطَّرد فيه، وكثيرًا ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل، وأكثر ما يكون ذلك حين يُعنى بالمشاكل الدينية والاجتماعية التي لا يراد بها مخاطبة القلوب حتى توضع وضعًا موسيقيًّا، وإنما يراد بها مخاطبة العقول ودعوتها إلى ترك ما درجت عليه من بعض أوضاع الاجتماع.
- **سابعًا:** يبتدئ القرآن السور بالبسملة، وهي سمة إسلامية أريدَ بها مخالفة ما كان عليه المشركون، وقد أراد فريق من الفقهاء أن يتخذوها فاتحة للرسائل والمؤلفات، فوجدوا لذلك حديثًا يقول: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر.»

وهذه الخصائص ليست كلَّ شيء في متن القرآن، فهناك مميزات تختلف بها بعض السور عن بعض، وهناك فروق دقيقة تتميز بها أساليب السور المدنية من السور المكية، ولكنه لا يمكن الفصل فيما تميز به أسلوب القرآن في جملته تميزًا جوهريًّا إلا إذا ظفرنا بنصوص كافية من نصوص النثر الذي عاصر القرآن أو سبقه بنحو جيل.

وهناك ميزة خطيرة للقرآن من الوجهة المعنوية: تلك تصويره للحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية التي كان يعرفها العرب قُبيل الإسلام، وتصويره لبعض ما كان يعرف العرب عن أسلافهم الأوَّلين، وبعض ما سمعوا به من أخبار الأمم الأجنبية التي سامها ملوكها الخسف وسوء العذاب.

والخلاصة أن القرآن نثر، وأنه دليل على أن العرب كان عندهم نثر فني قبل الإسلام، فكان لهم بذلك وجود أدبي متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان.

وفي هذا قضاء على أوهام من زعموا أن أوَّل كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل،[١١] وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب والأسجاع والأمثال.

ـــ نشأة النثر الفني:

بيَّنا أن النثر الفني وُجد عند العرب في الجاهلية، وهو يفرض نوعًا من الزخرف يهتم به علماء البلاغة، فلننظر أكان ذلك الزخرف في طبيعة اللغة العربية، أم وصل إلينا من الخارج حين اتصل العرب بالفرس واليونان؟

يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفني وصل إلى العرب من الفرس، وكان الدكتور طه حسين يشايعه في ذلك، ثم تغير فجأة فزعم أنه وصل إلى العرب من اليونان،[١] وكانت حجته وحجة المسيو مرسيه أن المولعين بالزخرف من كُتَّاب اللغة العربية أكثرهم من الفرس المستعربين.

وهذه مدرسة قديمة يرجع عهدها إلى (Renan) رينان وهي ترمي إلى الحكم بأن المدنية العربية غريبة عن العرب، وأن العرب مدينون في علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهم إلى الفرس واليونان، والدكتور طه حسين متأثر بهذه المدرسة إلى حد بعيد، فهو يقول بأن البلاغة العربية أُخِذَتْ حرفيًّا من البلاغة اليونانية حتى في الشواهد والصور والتعابير،[٢] وأذكر أنه أوصاني بالرجوع إلى تاريخ الآداب الفارسية لأعرف بالضبط مَن هم الكُتَّاب الفرس الذين أوحوا إلى كُتَّاب العرب فنون البديع؛ كالسجع والتورية والطباق والجناس.

وأنا لا أنكر أن العرب تأثروا بالفرس في حياتهم الأدبية، فإن من الطبيعي أن تدخل في اللغة والعقول عناصر جديدة بسبب المعاشرة والاغتراب والاطلاع على آداب الناس في مختلف الأقطار، فكل أمة في الأرض تتأثر حضارتها وآدابها وفنونها بالنماذج الجديدة التي تصل إليها عن طريق المعارض الدولية، وعن طريق السياحات وتبادل الآراء والأفكار في العلوم والفنون والآداب.

ولكني — مع هذا — أقرر أن الزخرف عنصر أصيل في اللغة العربية، وعندي لذلك شاهد لا يُجحد وهو القرآن.

أليس القرآن آية فنية؟ بلى، فلننظر إذن أهو كتاب طبيعي أم هو كتاب مملوء بالزخرف والصنعة المحكمة التي تدل على أنه أنزل على قوم يعرفون ما هو الكلام الجيد وما هو الأسلوب المتين.

وإننا لنرى المؤلفين في علوم البلاغة من رجال القرن الثالث والرابع والخامس يرجعون إلى القرآن فيأخذون منه الشواهد المتنوعة التي يعذر وجودها أحيانًا في الشعر والنثر عند الكُتَّاب المتأخرين.

وأنا لا أعرف حتى الآن باحثًا رجع في تدوين الصور الفنية للنثر إلى القرآن، واهتم ببيان الجدة والروعة التي يحتويها ذلك الكتاب الفذ، فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذي أولعوا بالجري فيه وهو عصر الدولة العباسية، وأن يجعلوا ميدان النضال هو عصر النبوة نفسه، وأن يحدِّثونا ما هي الصلات الأدبية والاجتماعية التي وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت نثرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين نراهما مجسمين في القرآن، هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية.

ولكن مثل هذا العمل — في رأيي — خطر على الباحثين المسلمين في الوقت الحاضر؛ لأن الرأي العام في مصر والشرق الإسلامي لا يسمح بدرس القرآن درسًا تحليليًّا يبين ما فيه من العناصر العربية الصميمة والعناصر الدخيلة، والمستشرقون أيضًا لا يهتمون بمثل هذا البحث؛ لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبيٌّ قبل الإسلام، والعرب بعد الإسلام — في رأيهم — متأثرون بالفرس والروم، كأن العرب لم يكن لهم من طبيعتهم الصافية، وعقولهم القويَّة، وأذواقهم السياسية؛ ما يكفي لأن تكون لهم اتجاهات فلسفية وأدبية وفنية تغلب عليها صبغة العبقرية أكثر مما تغلب نزعة المحاكاة.

ولنفرض جدلًا أن المسلمين المعاصرين يسمحون لكاتب مثلي بمعالجة هذا البحث، وأن المستشرقين كذلك اهتموا به، فستظل المسألة في رأيي معقدة صعبة الحل؛ لأنه لا يمكن الوصول إلى يقين في تحديد العناصر الأدبية التي يحتويها القرآن إلا إذا أمكن الوصول إلى مجموعة كبيرة من النثر الفني عند العرب قبل الإسلام تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون، فإنه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ما هي الصفات الأصيلة في النثر العربي، وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة، أم هو فنٌ من الكلام جديد.

ومفهوم أنه من المستحيل في الوقت الحاضر الوصول إلى نماذج أدبية تمثل من الأدب العربي ثلاثة قرون أو قرنين قبل الإسلام، وإذن بقي القرآن وحده يتقدم إلينا كل يوم على أنه صورة فنية مفردة لا نعرف لها شبيهًا موثوقًا به قبل الإسلام كما يعتقد المسلمون، والخطب والوصايا والرسائل التي نقلت إلينا على أنها جاهلية هي موضوع شك، وهي على فرض صحتها منسوبة إلى القرن الذي يباشر الإسلام، ولا يمكن معرفة طبيعة لغة من اللغات بعدد قليل من النصوص وُجد في مدة قليلة لا تزيد على نصف قرن من الزمان.

ونحن مع هذه الحيرة لا نستطيع الفرار من الاقتناع بأن القرآن أثر عربيٌّ صِرف؛ لأن الرسول الذي تلقاه وبلَّغه عربيٌّ، ولأنه نشأ في بيئة عربية، وبلسان عربيٍّ مبين، وليس أمامنا أي دليل على أنه متأثر تأثرًا محسوسًا بآداب أخرى أجنبية، وإن كان هذا ممكنًا؛ لأن العرب قبل الإسلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاورهم من الأمم، وكانت لهم مع جيرانهم الأقربين والأبعدين علاقات تجارية، وهذا كله لا يفيد غير الظن، وهو لا يغني عن اليقين.

أفأستطيع بعد هذا البيان أن أقول من جديد: إن صور النثر العربي لا ينبغي البحث عن أصولها في القرن الثاني والثالث، وإنما ينبغي الرجوع إليها في القرآن، وإذن لا يصح الحكم بأن الزخرف الفني في النثر العربي جاء عن طريق الفرس، وإنما هو طابع أصيل في اللغة العربية تطور مع الزمن وأخذ لونًا بعد لون، وانتقل من حال

إلى حال، وإن كان هذا لا يمنع أن تكون صلات العرب بالفرس زادت في قوة هذا التطور، وأضافت إليه قُوى جديدة خيَّلت إلى الباحثين أن النثر العربي مدين للفرس في تطوره ونموه، وهذا يفسر جانبًا من أسباب التطور، ولكنه لا يرجعها إلى سبب واحد هو العلة الأولى كما ظن كثير من المستشرقين.

والخواص الفنية الموجودة في القرآن توجد كذلك في الآثار الأدبية التي عاصرته؛ كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والولاة والقوَّاد الذين شهدوا عصر النبوة أو جاءوا بعده بقليل؛ ففي خطبة الوداع للنبي — عليه السلام — وكُتب عمر بن الخطاب وخطب عليٍّ وزياد والحجاج روح أدبية تقارب الروح السائد في القرآن.

ويمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التي سبقت الإسلام لم تكن تخالف كثيرًا لغة القرآن؛ لأن التطور الكبير الذي ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب، ومن روح إلى روح لا يتم في خمسين سنة مثلًا، وإنما يتطلب مدة طويلة؛ خصوصًا في أمة بدوية محافظة قليلة الاختراع والتبديل في لغتها وأسلوبها، ولكن هذا محض افتراض إلى أن توجد نصوص كافية موثوق بها تعيِّن أن لغة القرآن كانت موجودة بروحها وأسلوبها ووضعها قبل الإسلام بقرن أو قرنين.

بعد هذا ينبغي أن ننظر في نشأة العلوم العربية؛ كالنحو والبلاغة والعروض، وهي أيضًا في رأيي قديمة لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الإسلام في القرن الأول والثاني كما يظن مؤرخو الآداب العربية؛ لأنه لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن في أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا في الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير، وظهور كتاب كالقرآن في أي لغة يدل على أنها تعدت طور الطفولة منذ أزمان، واللغة حين تصل إلى عهد القوة والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقييد ما يعرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والغموض.[٣]

والدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر حين اشتدت الخصومة بين علماء الكلام، والجاحظ في رأيه أول من اهتم بالبلاغة اهتمامًا جدِّيًّا، وأنا أرى أن نشأة البلاغة قديمة سبقت القرآن وتطورت من بعده، ولكن ذلك كان يجري

ببساطة وسهولة لا توقع في الزخرف، ومن أجل ذلك لاحظ مؤرخو الآداب أن بشارًا هو أول من كلف بالبديع في شعره، وتبعه في ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس، وأن أبا تمام تأثر بمسلم، وأولئك من شعراء القرن الثاني، فهل نشأ البديع في يوم وليلة، أم كان موجودًا وتطور على ألسنة أولئك الشعراء؟

ولنقيد هنا أن القرآن في بلاغته إنما كان يخاطب قومًا يفهمونه ويتذوقونه، وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن أن يقع اتفاقًا وبلا استعداد، بل لا بدَّ من أن تكون عند الجماهير التي سمعته وتأثرت به واعتنقت دينه ثقافة أدبية خاصة، وأنا لا أفترض أن هذه الثقافة كانت كالثقافة التي ظفر بها العرب بعد الإسلام، ولكنها على كل حال كانت تتناسب قليلًا أو كثيرًا مع ما في القرآن من فصاحة وعمق، وهذا الذي أقوله يحملنا على الشك في التقاليد التي جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أميين بدرجة خطيرة، وأنهم بذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئًا يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم.

بل أنا أذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الإسلام كان تاجًا لنهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية في الحدود التي كان يستطيعها العرب؛ لأنه لا يمكن رجلًا فردًا مثل النبي محمد — عليه السلام — أن ينقل أمة كاملة من العدم إلى الوجود، ومن الظلمات إلى النور، ومن العبودية إلى السيادة القاهرة، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد استعدت في أعماقها وفي ضمائرها وفي عقولها؛ بحيث استطاع رجل واحد أن يكوِّن منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرِّقة، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوربا في زمن وجيز، ولو كان يكفي أن يكون الإنسان نبيًّا ليفعل ما فعله النبي محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا؛ لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض.

بل إني لأذهب لأبعد من ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية في عهد النبي لم تصوَّر إلى الآن بصورتها الحقيقية، فهذا رجل غيَّر أمة كاملة في

عشرين عامًا ولقيت دعوته آلاف المصاعب، أفيمكن حقًّا الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبري وغيره من المؤرخين؟

وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التي قامت في وجهه واضطرته إلى الهجرة؟

وأين ألسنة اليهود والعرب والأشراف من قريش؟

أفيعقل أن تمر حركة كهذه من دون أن تهب في وجه صاحبها ألسنة الخطباء وأقلام الكُتَّاب وشياطين الشعراء؟

وهل تسمح طبيعة الوجود بأن رجلًا كمحمد يقضي أسماره بين خواصه، وأيامه في ميادين الحروب، من غير أن تكون له ولرجاله مساجلات قوية يتناولون فيها حجج خصومهم نقدًا وتحليلًا، ويعرضون فيها للسياسة العامة بآراء لها من القيمة ما شهدنا آثاره في الرسالة الإسلامية؟

وهل يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبي وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول في النفح عن دياناتهم والقدح في الديانة الجديدة التي تهاجمهم في عقر دارهم، وتدعوهم إلى تحطيم أصنامهم وترك أحبارهم ورهبانهم؟ هل يعقل أن يمر ذلك كله من دون أن يكون لهؤلاء ألف خطبة، وألف رسالة، وألف قصيدة؟

أضيف إلى ذلك أن الحركة الإسلامية لم يعرف فيها من الخطباء والشعراء إلا عدد قليل لا يتناسب مع خطورة ذلك الموقف، أفكان حقًّا أن الإسلام لم يقم إلا على أكتاف ذلك العدد القليل؟

إن الحياة العقلية في عهد النبي لم تُنقل إلينا بصورتها الحقيقية، ويرجع ضياع صورتها في رأيي إلى سببين:

- **أولًا:** ضياع آثار حزب المعارضة معقول؛ لأنه انهزم ولم يعد في الإمكان تدوين الرسائل الجارحة والخطب المقذعة والرسائل اللذاعة التي هوجم بها النبي وأنصاره، خصوصًا إذا لاحظنا أن الذين نقلوا آثار ذلك العصر كلهم من المسلمين الذين يرون من الإثم والحرج أن يعيدوا الشتائم والقذائف التي رُميَ بها النبي وجُرِّح بها الإسلام، ولو بقيت آثار حزب المعارضة لاستطعنا أن نفهم إلى أي حد كان خصوم النبي يفهمون آراءه الاجتماعية والمنزلية، ولرأينا كذلك صورة من الأدب الذي كان يستبيح مهاجمة النبي ورسالته في عنف وإقذاع.
- **ثانيًا:** ضياع آثار النبي وأصحابه معقول أيضًا، فقد شعر المسلمون بأن واقعة اليمامة أضاعت جمهور الحفاظ؛ بحيث أصبح القرآن نفسه مهددًا بالضياع، ولولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدد القرآن وعدنا لا نجد منه إلا شذرات مختلفة لا تطمئن إليها النفس كما هو الحال في الأحاديث التي دوِّنت أخيرًا، بعد إذ مات الحفاظ الأولون.

وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب بأن يدونوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة، فإنه لا يصح لنا أن نستنتج أنه لم تكن لهم حياة أدبية قوية تصور ميولهم وأذواقهم وعواطفهم ومشاعرهم، وكفرهم وإيمانهم، ووفاءهم وغدرهم، إلى آخر الألوان النفسية التي يقتضيها عصر التحول والانتقال في جميع الأمم بلا استثناء.

وإنما ينبغي أن نعتقد أنه كان له أدب قوي متين يقرب في روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه؛ فإن البيئة واحدة والعصر واحد، ولم يكن محمد إلا بشرًا أُلهم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة، لا سيما إذا تذكرنا أن القرآن وصف العرب في عدة مواطن بأنهم أهل فصاحة وجدل، وخصومة وعناد، ولم تكن فصاحتهم صمتًا، ولا جدلهم سكوتًا، ولا خصومتهم فرارًا، ولا عنادهم انهزامًا، ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول، والسيف بالسيف نحو ثلث قرن إلى أن انتصر الإسلام، ولم تبقَ من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحرب.

والواقع أن تسمية ذلك العصر الجاهلي تسمية دينية صرفة، فإن العرب لم يصفوا ذلك العصر بالجاهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية، ولكنهم فيما يرجع إلى الأدب كانوا يرونه في أرقى العصور، وكانوا يتأثرون شعراءه وخطباءه وحكماءه في كثير من أبواب القول.٤

وقد استمسك العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلي، وعدُّوه وحده المرجع في ضبط أساليب اللغة العربية، ولم يتخذوا شواهد من الشعر الإسلامي إلا في الحدود التي حسبوها قريبة أشد القرب من النزعة الجاهلية، فكان الشعراء لذلك يجتهدون في تذوق الأدب الجاهلي، وفي رياضة أنفسهم على محاكاته والصدور عن وحيه وأخيلته وتعابيره وألفاظه، وقد نَفَقَ ذلك الأدب نفاقًا عظيمًا حتى رأينا من الرواة من يصنع القصائد والخطب والأمثال في لغة جاهلية ليبيعها في الأسواق وفي قصور الأمراء والوزراء والخلفاء، فكان مَثَل ذلك الشعر الجاهلي مَثَل الآثار المصرية التي يخلقها التجار خلقًا ليبيعوها للأغنياء من عشاق العاديات. وقد نشأ عن هذا فنٌّ من النقد برع فيه الأقدمون، فكان منهم من يهتم بتمييز الأدب الجاهلي الصحيح من الأدب الجاهلي المصنوع، نكاية بالرواة الملفقين، أو حبًّا في تصفية الأدب الجاهلي من الزيف المدخول.

وفي ذلك مَقنَع لمن يحب أن يطمئن إلى أن العصر الجاهلي لم يوصم بالجهل إلا فيما يختص بالدين، أما في الأدب فكان عصر نور وعلم وعرفان، كما تشهد آثار القدماء.

هناك ناس يعتقدون أن الشعر الجاهلي منحول، وهناك أفراد ينكرون أن يكون العرب الجاهليون عرفوا من الأدب شيئًا آخر غير الشعر والأمثال، وأحب أن أبيِّن أنه لا تعارض بين القول بنفي ذلك الأدب والقول بإثباته، فأنا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهلي واسع النطاق، وأنه كان للعرب الجاهليين ألسنة فصيحة وعقول ناضجة، وآراء حكيمة قادرة على قيادة تلك الجماهير الحية التي تفرقت في الحواضر العربية.

يقولون: وأين آثار ذلك في الأدب الجاهلي؟

وأجيب بأن ذلك الأدب قد ضاع أكثره، حتى ليصعب أن تتخذ منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية واجتماعية ودينية.

وهنا يبتسم المنكرون قائلين: ومن يدرينا أنه كان هناك أدب ضاع!

وعند هذه المفاجأة نجد الجواب؛ لأن الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثاني والثالث فقد عرفوه وتدارسوه، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن المجموعة الشعرية التي جمعها المفضَّل الضبي في القرن الثاني مجموعة صحيحة؟ ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن تلك المجموعة تدل على أنه كان هناك شعر جاهلي كثير جدًّا اختيرت منه المفضليات؟

أضيف إلى هذا أن رجال الأدب الموثوق بهم مَن جَمَع كتبًا كثيرة من آثار العصر الجاهلي، وأن تلك الكتب قد ضاعت أصولها ضياعًا تامًّا، وفي ذلك ما يشعرنا بأن المتأخرين فقدوا ذخائر كثيرة من أصول الأدب القديم.

إننا نعرف أن أبا تمام جمع كتاب الحماسة من مكتبة أحد الأمراء، والجمع هنا معناه التخير، ونعرف كذلك أن ديوان الحماسة يشتمل على مختارات نفيسة من الأدب الجاهلي، فهل نجد ما يدلنا على مصادر أخرى لأكثر ما اختاره أبو تمام غير ديوان الحماسة؟

فإن لم توجد تلك المصادر فلن يكون معنى هذا أن أبا تمام خلق ديوان الحماسة خلقًا، ولكن معناه أن الحياة كتبتْ لذلك الديوان، وليس أبو تمام وحده هو الذي عُني باختيار الشعر القديم، فهناك مؤلفون عديدون اهتموا بذلك النوع من الاختيار، ثم ضاعت مختاراتهم ولم يبقَ إلا ذكراها في كتب التراجم، ومع هذا فمن الغرور أن نحكم على قيمة الأدب الجاهلي بما قرأناه منه، فمن ذلك الأدب مجموعات قيمة جدًّا لم يُكتب عليها الفناء وغفل عن استغلالها أكثر الباحثين.

وفي دار الكتب المصرية مخطوطات لم يفكر أحد في الانتفاع بها، مع أن دار الكتب المصرية من المكاتب الفقيرة التي جمعت ذخائرها اتفاقًا ومصادفة بدون أن يكون عند مؤسسيها فكرة الاستقصاء. وفي مكاتب إسبانيا والمغرب آثار جليلة للأدب الجاهلي لم يستغلها أحد، ولعلها لو فُهرستْ ونظِّمت ودُرست لكشفت لنا نواحي مجهولة من الأدب القديم ... ولكن أين من ينتظر نتيجة البحث؟ إن المتأدبين عندما يحكمون على الغائب بلا بينة ولا شهود!

أنا أقول بأن الأدب الجاهلي لم يضِع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون فكانوا يعرفونه ويروونه، ويتجرون به في الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك.

ولكني مع هذا أقرر أن هناك شطرًا من الأدب الجاهلي قبره المسلمون عمدًا في القرن الأول، وإلى القارئ البيان:
كانت الحياة الجاهلية تختلف عن الحياة الإسلامية اختلافًا شديدًا، ففي الأعوام التي سبقت الإسلام كانت في الجزيرة عادات وتقاليد وأوضاع لها ألوان وثنية أو نصرانية أو يهودية، فلما جاء الإسلام تبدلت تلك التقاليد وصار من اللائق تناسي ما يمسها من الأدب الجاهلي وصفًا أو شرحًا أو تعليلًا، ورأى العرب المسلمون أن في ذلك الأدب جوانب خطرة يجب إسقاطها والقضاء عليها صونًا للوحدة الإسلامية، وليس في هذا شيء منكر؛ لأن الأدب يتصل أكثره بحياة الناس وسيرهم وأخبارهم وأخلاقهم من شمائل مرضية أو طباع ذميمة، وفي حياته حياة لما وصف أو شرح أو علل من الأخلاق والسجايا والمعتقدات.

وقد يتفق أن يكون في العرب والمسلمين من تناوله شعراء الجاهلية وكتَّابهم وخطباؤهم بالقدح والثلب والتحقير، وقد يتفق كذلك أن تكون هناك قبائل تهاجت وتحاربت في الجاهلية ثم ألَّف بينها الإسلام، أفيكون من الحزم أن يعود الرواة إلى ذلك الأدب فيرووه ويحيوه وفيه إثارةٌ لما سكن وهدأ من قديم الأحقاد؟

إن العرب في الصدر الأول من الإسلام تناسوا عامدين أبوابًا كثيرة من الأدب الذي كان محفوظًا قُبيل الإسلام؛ صيانة للوحدة الإسلامية من عبث الأهواء، وليس هذا الذي نقوله مجرد افتراض؛ ففي التاريخ الإسلامي شواهد كثيرة تقنعنا بأن الخلفاء الراشدين كانوا يتشاءمون من رواية الأدب الجاهلي، وهم بالطبع لا يتشاءمون إلا من الأدب الذي يصور ما كان عند الجاهليين من تِرَاتٍ وعداوات وحزازات، وهم فيما عدا ذلك كانوا يدعون إلى رواية الشعر وحفظه؛ لأنه — كما قال عمر بن الخطاب — ديوان العرب.

والذي نقضي به في الشعر هو نفس ما نقضي به في الرسائل والخطب والأسجاع، فمن عسى أن يكون ذلك المسلم الذي يستبيح رواية خطب الكهان ورسائلهم وأسجاعهم وهي تفيض بالروح الوثنية؟ ومن عسى أن يكون ذلك المسلم الذي يروي ما أُثِر عن النصارى واليهود قُبيل الإسلام، في حين أن الدين الجديد كان يروضهم على تناسي جميع الآداب التي تنافي أدب القرآن.[٥]

من أجل هذا كله أستبعد أن يكون العرب ظلوا خالي الذهن من العلوم الأدبية إلى أن اتصلوا بالفرس والروم، وإذا كان المستشرقون ومن لفَّ لَفَّهم من أدباء مصر يستكثرون أن يكون أبو الأسود الدؤلي هو أول من فكَّر في النحو، ويرجحون أن يكون النحو أثرًا من اتصال العرب بالسريان والروم، فأنا أستقل أن يكون أبو الأسود الدؤلي أول من فكر في النحو، وأرى من المضحك أن يُظَنَّ أن العرب لم يتنبهوا إلى وقوع اللحن في لغتهم إلا بعد الإسلام، وأن اتصال العرب بالأعاجم هو الذي رماهم باللحن، كأن لغة العرب بدعٌ من اللغات لا يلحقها تغير ولا تبدل، وذلك رأي واضح البطلان.

وإنما أرجِّح أن يكون العرب في جاهليتهم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبية، ألسنا نرى القرآن يجري على نمط واحد في أوضاعه النحوية لا يختلف في ذلك إلا باختلاف رواته من القبائل المختلفة؟[٦] ولغة القرآن هي لغة قريش، وهي التي تهمنا،

فإذا كنا نجهل إلى الآن كيف تطورت وكيف نشأت علومها وفنونها، فمن الأمانة العلمية أن نقف على الأقل محايدين، وأن لا نجزم برأي ستنقضه الأيام.

وهذا الذي أقوله أنا مستعد لتحمل تبعته والدفاع عنه، وأرجو أن يكون له أثر في فهم البيئة القديمة التي نزل فيها القرآن، والتي تستحق أن تدرس من جديد درسًا علميًّا يكشف اللثام عن ذلك العصر الذي سموه خطأ عصر الجهل، وهو في رأيي أهل لأن يسمى عهد معرفة ونور.

على أنني وقفت على نص مهم يدل على أن من نقاد العرب من ارتاب في نشأة العلوم اللغوية؛ إذ رأيت ابن فارس يلاحظ في قصيدة الحطيئة التي أولها:

شاقتك أضغان لليـ لى دون ناظره بواكر

أن قوافيها كلها عند الترنيم والإعراب تجيء مرفوعة، ولولا علم الحطيئة بالرفع لاختلف إعرابها؛ لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقًا من غير قصد لا يكون، وهذا برهان على فهم الحطيئة لقواعد النحو والعروض.[٧]

وكذلك يرى ابن فارس أن معرفة القدماء من الصحابة بكتابة المصحف على النحو الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمزة والمد والقصر تدل على فهمهم لأصول اللغة وقواعد الكتابة،[٨] وهو على الجملة يرى أن العلوم العربية كانت معروفة قبل الإسلام.

والذي قضى به ابن فارس في نشأة النحو والعروض هو الذي نقضي به نحن في نشأة البديع، بل نشأة البديع أظهر وأوضح، فإن القرآن سجل مظهرًا من مظاهر الزخرف والسجع، فهو إذن كان موجودًا قبل الإسلام، وليس السجع فقط هو الذي قيده القرآن، بل أكثر الفنون البديعية أخذت شواهدها من آيات القرآن.

ونتيجة ما قد سلف أن العرب في جاهليتهم اهتموا بالنثر الفني اهتمامًا ظهر أثره وعرفت خواصه في خطب الخطباء ورسائل الكُتَّاب، ولكن ما عُرف عن العرب من

إهمال التقييد والتدوين لشيوع الأمية فيهم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتمامًا جديًّا بتدوين البديع، فكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين في هذا الفن الجميل.[٩]

ـ النثر الفني في العصر الإسلامي[١]:

جاء الإسلام فأيقظ العرب وأثار ما سكن من نشاطهم وحياتهم، وحبَّب إليهم القوة والجاه والملك، فانطلقت ألسنتهم، وظهر فيهم الكُتَّاب والخطباء والشعراء، وكان من دواعي ذيوع البلاغة عندهم حاجتهم إلى الدفاع عن صدق النبوة، ثم اشتجار الفتن بينهم؛ فتن التحزب والاختلاف والانقسام التي كانت أهم باعث على شيوع الكتابة والخطابة في تلك الأمة التي توارت في الصحراء زمنًا غير قليل، وأول مظهر لقوة الخطابة والكتابة هو التنافس الشديد الذي قام بسبب الخلافة، فقد كان كل حزب من المهاجرين والأنصار يدعو لنفسه سرًّا وعلانية عن طريق الخطب والرسائل، والمجادلات التي كانت تثور في المجالس والمساجد والأسواق.

ثم كانت الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فظهرت حاجة الفريقين إلى البلاغة، واشتدت الرغبة في نشر الدعوة في الأمصار الإسلامية، ولم يكن حظ هذه النهضة الأدبية كحظ النهضة التي سبقتها في الجاهلية؛ لأن العرب شرعوا يتحضرون ويسلكون سبيل الأمم الممدنة في التدوين، فكان من أثر ذلك أن حفظت آثار الكتاب والخطباء؛ بحيث يستطيع الباحث أن يعيِّن مظاهر النثر وخواصه في عصر بني أمية وصدر عصر بني العباس.

وأول ما ينبغي إثباته من خواص النثر هو عمقه وقوته بفضل تأثره بالآداب الأجنبية التي عرفها العرب حين انبثوا بفضل الإسلام في الممالك التي فتحوها، واكتسبوا بالمعاشرة والمصاهرة روحًا جديدًا ظهر أثره في الخطب والرسائل والمحاورات، حتى ليمكن أن يقال: إن الفتح والملك أعطاهم من قوة الملاحظة ودقة التفكير ما لم يعطهم القرآن وحده لو ظلوا محصورين في أرجاء الجزيرة العربية.[٢]

ولا عبرة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة، فإن هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربي عن فهم المدنيات الأجنبية، وإنما كان يراد به حمايته من العجمة التي كانت تعيب الأرستوقراطية العربية، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه.

ومن خواص الكتابة: عدم التأنق في البدء والختام؛ فقد كانت الجاهلية تكتب في أول كتبها «باسمك اللهم»، ثم تكتب من فلان إلى فلان، ويمضون في الغرض، وكان النبي يفتتح كتبه بالبسملة ثم يقول: «من محمد رسول الله إلى فلان»، ويبتدئ صدورها غالبًا بالسلام عليكم، أو السلام على من اتبع الهدى، ويثني بالتحميد بعد السلام فيقول: «إني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو» ويتخلص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بـ (أما بعد) وأخرى بغيرها، وكان يختتمها في الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله، أو السلام على من اتبع الهدى.[٣]

والذي يهمنا تقييده في هذا الفصل هو المنهج العام الذي جرى عليه النثر في ذلك العصر، ويظهر مما اطلعنا عليه أن مسألة الإيجاز والإطناب كانت تجري في الغالب على مقتضى الحال، فكان الكاتب يوجز تارة ويطنب أخرى؛ وفقًا للظروف التي يكتب فيها رسالته، وكان من الخطباء من يطيل، وكان منهم من يوجز، ولا يرجعون في ذلك إلى قاعدة غير المناسبات التي توجب الكلام، فتقضي مرة بالإطناب وتقضي حينًا بالإيجاز، وسحبان وائل الذي عرف بالتطويل وبأنه كان يخطب أحيانًا نصف يوم أُثِرت عنه الخطب القصيرة الموجزة، وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر، وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئًا آخر غير مراعاة الظروف.

ورسائل عليِّ بن أبي طالب وخطبه ووصاياه وعهوده إلى ولاته تجري على هذا النمط، فهو يطيل حين يكتب عهدًا يبيِّن فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي يرعاه، ويوجز حين يكتب إلى بعض خواصه في شأن معين لا يقتضي التطويل.[٤]

غير أنه لا يمكن الحكم بأن الكُتَّاب والخطباء كانوا جميعًا موفقين في ترك الفضول، بل يظهر أنه في أوائل العصر العباسي وقع اضطراب في تقدير الظروف والمناسبات وفهم أقدار المخاطبين، فإننا نجد ابن قتيبة يدعو في مقدمة كتابه «أدب الكاتب» إلى وضع الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب إليه؛ بحيث لا يعطي الكاتب خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيع الكلام، ونراه يلاحظ أن الكُتَّاب لا يفرقون بين من يكتب إليه: «أنا فعلت ذلك»، ومن يكتب إليه: «نحن فعلنا ذلك».٥

وقد ساعدنا ابن قتيبة على تحديد النمط الذي ساد في العصر الإسلامي؛ حيث ناقش كلمة إبرويز في الإيجاز «واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول»، فبيَّن أن الإيجاز ليس محمودًا في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، وأنه لو كان الإيجاز محمودًا في كل الأحوال لجرى عليه القرآن، ولكنه لم يفعل ذلك، بل أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام، ثم اندفع ابن قتيبة فذكر أنه ليس يجوز لمن قام مقامًا في تحضيض على حرب أو حمالة بدم أو صلح بين عشائر أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن كتب إلى عامة في فتح أو استصلاح أن يوجز، وأنه لو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه في بيعته:

أما بعد، فإني أراك تُقدم رِجْلًا وتُؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت، والسلام.

لم يعمل هذا الكلام في أنفسنا عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدئ، ويحذر وينذر.٦

وقد توهم الأستاذ أحمد الزيات أن كلمة ابن قتيبة هذه دليل على أن النثر في الصدر الأول كان موسومًا بالإيجاز، وأن ابن قتيبة دعا أهل ذلك العصر إلى عدم الاكتفاء بما كان يكتفي به أمثال يزيد بن الوليد.٧ وهذا خطأ في الاستنتاج، فإن ابن قتيبة ذكر أن القرآن كان يطيل ويكرر حسبما تقتضي الظروف، والقرآن أساس المنهج الكتابي لذلك العصر بلا شك، والذي لا يمكن نكرانه أنه حصل تطور في النثر في

العصور الإسلامية الأولى، ولكنه كان تطورًا بطيئًا لم تظهر آثاره إلا في طرائق التعبير عن الشئون الخاصة بتدبير الملك ومخاطبة الخلفاء، وهذا التطور متأثر باتصال العرب بالفرس، فقد كان لهؤلاء تقاليد ملكية رغب العرب في محاكاتها حين اطلعوا على ما عندهم من الفنون والآداب.[٨]

ويهمنا فوق ما تقدم أن ننص على أن النثر في العصر الإسلامي لم يأخذ عليه التزام السجع، وإنما كان يقع السجع حين يقع بسيطًا مقبولًا لا تكلف فيه، ولا نكاد نجد في القرن الأول والثاني وأوائل الثالث كاتبًا يتخذ السجع طابعًا ملازمًا لنثره، خصوصًا الكُتَّاب المشاهير الذي أغنوا تلك العهود بأدبهم؛ كابن المقفع وعبد الحميد بن يحيى.

والسجع في الأصل حلية يزدان بها النثر، وهي مقبولة ما دامت تجري في حدود الاعتدال والقصد، كما وقع في القرآن، فإن القرآن يسجع أحيانًا، ولكنه لا يلتزم السجع، لذلك نجا من التكلف والابتذال.

والصنعة التي أُثِرت عن ذلك العصر تدل على أن الكُتَّاب كانوا يفهمون أن الكتابة فن له قواعد وأصول، وأن الكاتب يجب أن يصفي كتابته من أوشاب الخطأ والضعف، لذلك رأينا واصل بن عطاء مثلًا يتجنب الراء في خطبه؛ إذ كان ألثغ، وبالرغم من أن هذا الحرف كثير الدوران في الكلام،[٩] وتجنُّب مثل هذا الحرف من باحث كبير مثل واصل يتكلم ويخطب بلا انقطاع يدل على أن إجادة النثر أصبحت مقصودة عند كتاب ذلك العصر وخطبائه، ومثل هذا القصد كافٍ للدلالة على فهم أولئك الناس لأهمية الإتقان.

والذي يتأمل آثار ذلك العصر يرى اهتمام الكُتَّاب والخطباء ببسط المعاني وتأكيدها بتكرير الجمل المتقاربة في مغزاها ومدلولها، وهذا يعطينا فكرة واضحة عن تصور الكُتَّاب والخطباء لنفسية من يراسلونهم أو يخاطبونهم، وهذا التكرير الذي أشير إليه ليس كالتكرير الذي سأنكره فيما بعد على كُتَّاب القرن الرابع، وإنما هو تكرير خفيف

مقبول يؤكد المعنى ولا يثقله؛ كالذي وقع في رسالة الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز:

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزوَّد له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلًا غير منزلك الذي أنت به، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك؛ يسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا، فتزوَّد له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.[١٠]

وهذا التكرير قد يزيد عند بعض الكُتَّاب، ولكنه يظل مقبولًا أيضًا؛ كالذي وقع في مشاورة المهدي لأهل بيته في مثل هذه التعابير:

أيها المهدي، إن في كل أمر غاية، ولكل قوم صناعة استفرغت رأيهم واستغرقت أشغالهم واستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرفوا بها وعرفت بهم، ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غاية، وطلبت معونتنا عليها أقوام من أبناء الحروب وساسة الأمور وقادة الجنود، وفرسان الهزاهز وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سجالها وفيَّأتهم ظلالها وقرمتهم نواجذها، فلو عجمت ما قِبَلهم وكشف ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديث تقوي قلبك، فأما نحن معاشر عمالك وأصحاب دواوينك فحسنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك، واستودعتنا من أمانتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك، وإنفاذ حكمك، وإظهار حقك.[١١]

وقد شاع هذا الأسلوب في القرن الثاني والثالث، واتخذه الجاحظ خاصة أسلوبًا مختارًا لا يحيد عنه، يظهر ذلك في مقدمة كتبه؛ مثل: البيان والتبيين والحيوان، وفي رسائله الأدبيه والاجتماعية. وفي رأيي أن الجاحظ وصل إلى درجة الغلو والإملال، ولولا أنه كان يخلط في كتابته بين الجد والهزل والحلو والمر لانصرف الناس عنه، ولكنه كان رجلًا عالمًا بطباع الناس وغرائزِهم، فاستطاع بذلك أن يتملق أهواءهم وأذواقهم، وأن

ينسيهم برقَّة دعابته وحلاوة استطراده إسرافه في أسلوبه وتطويله الذي عرف به واضطر للدفاع عنه في مقدمة كتاب الحيوان.

ومن مظاهر الصنعة في ذلك العصر تعمد الخيال، وتلك صفة نجدها عند أكثر الكُتَّاب والخطباء، فنجد الحجاج مثلًا يقول:
يا أهل الكوفة، إني لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللِّحى.

ويقول:

إن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — كبَّ كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرَّها عودًا وأصلبها عمودًا، فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال ... أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.١٢

وإيثار الخيال في النثر ظاهر في خطب علي بن أبي طالب وزياد ورسائل عبد الحميد١٣ وحكم الواعظين والنساك في تلك الأيام، ومنشورات الخوارج التي هاجموا بها الخلفاء، وهذا الأسلوب مظهر من مظاهر الفن لا ينبغي تجاهله عند تقرير الخواص التي امتاز بها النثر في ذلك الحين.

هذه المظاهر الفنية التي طبع بها النثر في عصر بني أمية وصدر دولة بني العباس كانت مقدمة لنوع من الإسراف في الزخرف أفسد النثر فيها بعد، وأثقله بألوان من السجع والازدواج.

ـ أطوار السجع:

لهذا البحث أهمية عظمى، وقد جمعنا مذكرات عديدة تصلح مادة لكتيب خاص، ثم رأينا إجمالها في هذا الفصل،١ وترجع أهمية هذا البحث إلى ما يجب من تبديد

الشبهة التي تأصلت في أنفس كثير من الباحثين الذين يظنون أن التزام السجع لم يقع إلا في القرن الرابع، فقد حدثني المسيو مرسيه مرة أنه وجد كتابًا لمؤلف قديم اسمه الأخضري، وأن المؤلف منسوب إلى القرن الثالث، ويُصر المسيو مرسيه على ضمه إلى رجال القرن الرابع؛ لأنه يلتزم السجع.

واستطرد المسيو مرسيه فذكر أنه عرض هذه المسألة على الدكتور طه حسين فوافقه على استبعاد أن يكون من رجال القرن الثالث من يلتزم السجع، وفي هذا الفصل تُبدَّد أمثال هذه الشبهات، ويعرف القارئ أن السجع حلية قديمة أولع بها الكتاب والخطباء قبل القرن الرابع بأجيال، وأنه لا يكفي أن يكون الكتاب مسجوعًا ليطرد من حظيرة القرن الثالث كما حكم وليم مرسيه وطه حسين.٢

ولنذكر أولًا أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية، فهو في أكثر اللغات يجري باطراد في الحكم والأمثال، ويمكن الحكم بأن أمثال العامة تقع غالبًا مسجوعة، وقد يجني السجع على المعنى أحيانًا في تعابير الفطريين من أهل البادية والريف، وفي ذلك دلالة على أن المحسِّنات اللفظية مما يقصده العوام وليست مما ينفرد به الخواص، والقارئ يستطيع بسهولة أن يجمع عشرين مثلًا في لحظة واحده من أسجاع العامة فيما سار على ألسنتهم من مختلف الحكم والأمثال،٣ ولو رجع القارئ إلى إحدى اللغات الأوروبية؛ كالفرنسية مثلًا، لوجد السجع يجري باطراد في هذا الضرب من القول

وما جمعه الرواة من خطب الجاهليين أكثره مسجوع؛ كخطبة قس بن ساعدة الإيادي وخطبة النابغة الذبياني،٤ ومع أننا نرتاب في صحة تلك الخطب فإننا نرى في وضعها مسجوعة — على فرض صحة الوضع — دليلًا على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية، وفهم الرواة له قيمته؛ لأنهم أقرب منا بمراحل طويلة إلى ذلك العهد، ولأنهم كانوا يملكون من أصول الأدب الجاهلي الصحيح ما يمكنهم من الحكم على طرائق أهله في التعبير.

ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية، وعدنا إلى نص جاهلي لا ريب فيه، وهو القرآن، لرأينا السجع إحدى سماته الأساسية، والقرآن نثر جاهلي، كما أوضحنا ذلك من قبل، والسجع فيه يجري على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان، ولا ينكر متعنت أن القرآن وَضع للصلوات والدعوات ومواقف الثناء والخوف والرجاء سورًا مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين، ولا ننسى أن الوثنية كانت دينًا يؤمن به أهله في طاعة وخشوع، وكانت لهم طقوس في هياكلهم، وكانت تلك الطقوس تؤدَّى على نحو قريب مما كان يفعله أهل الكتاب من النصارى واليهود.

والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب في صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات، والفرق بين الملتين يرجع إلى المعاني ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال، ولو دخلتَ كنيسة في باريس ورأيت كيف تتلى الدعوات بعد الصلاة لتذكرت الصورة التي تتلى بها الدعوات بعد الصلاة في مساجد القاهرة؛ ذلك بأن الديانات الثلاث؛ الإسلام والنصرانية واليهودية، ترجع إلى مهد واحد هو الجزيرة العربية، فاللون الديني واحد، وصورة الأداء تكاد تكون واحدة، فلا تحسب أن القرآن غيَّر مناهج الناس في يوم وليلة، وتذكر أنه لم يشأ إلا أن يصلح من عقائد من دعاهم إلى الله، وأن يروضهم على فكرة واحدة هي التوحيد.

ومعنى هذا أن القرآن يسجع؛ لأن السجع كان فنًّا من فنون القول والدعاء عند الجاهلية، والصلوات بطبيعتها تحتاج إلى لون من الفن يتمثل في السجع؛ لأن فيه استجابة للموسيقا الوجدانية في قلوب المتبتلين، وإليك أمثلة من سجع القرآن: وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ *

لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (الزخرف: ٦-١٤).

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (الواقعة: ١٠-٣٤).٥

وعند ملاحظة سجع القرآن نراه يختلف فجأة في بعض الأحايين؛ كأن تكون القافية نونية فتجيء في وسط السياق فاصلة ميمية، وفي هذا برهان على أن المعنى هو الأصل، وأن السجع لا يراد به مطلق التوافق في الحرف، وإنما يقصد به التلحين والتنغيم؛ لأن تغيير الحرف مع بقاء الوزن لا يغير من الرنة الموسيقية.٦

وفي الأحاديث النبوية سجع مقصود، خلافًا لما ظن المسيو ماسينيون،٧ ومن أمثلته: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام.

ونقل الغزالي في باب الاستعاذات المأثورة عن الرسول:

اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طَبع، ومن طمع في غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع. وأعوذ بك من الجوع؛ فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة؛ فإنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن، ومن الهرم، ومن أن أُردَّ إلى أرذل العمر.٨

ولنقيد أن السجع لا يطَّرد في الحديث كما لا يطَّرد في القرآن، فهو حلية تقصد، ولكنها لا تلتزم؛ لما في التزامها في قهر المعاني على متابعة الألفاظ.

وقد نجد في الأحاديث عبارات تجري مجرى السمع من حيث مراعاة الوزن وإن لم تراعَ فيها القافية؛ كقوله عليه السلام:
اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي، وترد بها ألفتي، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء.[٩]

وهذا النوع من «الوزن» قريب من السجع من حيث بناء الجملة، وسنعود إليه بعد قليل.

ولو مضينا نستقرئ خطب الصحابة والخلفاء الراشدين لرأينا السجع يُلتزم في كثير من الأحيان، وإلى القارئ خطبة منسوبة إلى علي بن أبي طالب:

دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم نُزَّالها، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة؛ ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها، واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل مَن قد مضى قبلكم ممن كان أطول منكم أعمارًا، وأعمر ديارًا، وأبعد آثارًا، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسامهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية؛ فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة[١٠] الملحدة، التي قد بني بالخراب فناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودنو الديار، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى، وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه،

وارتهنكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور وبعثرت القبور.١١

وقد أراد المسيو (Demonbynes) ديمومبين أن يغض من قيمة ما نُسب إلى علي بن أبي طالب من خطب ورسائل؛ استنادًا إلى ما شاع منذ أزمان من أن الشريف الرضي هو واضع كتاب «نهج البلاغة»، أما نحن فنتحفظ في هذه المسألة كل التحفظ؛ لأن الجاحظ يحدثنا أن خطب علي وعمر وعثمان كانت محفوظة في مجموعات.١٢ ومعنى هذا أن خطب عليٍّ كانت معروفة قبل الشريف الرضي، والذين نسبوا «نهج البلاغة» إلى الرضي يحتجون بأنه وضعها لأغراض شيعية، فَلِمَ لا نقول من جانبنا بأن تهمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعية؟١٣

ولو فرضنا أن أمثال ما استشهدنا به من خطب عليٍّ ليس له، فإن ذلك لا يمنع أن السجع كان من مزايا ذلك الخطيب؛ لأن من يقلد خطيبًا يحرص على تمثيل مذهبه في الأداء والأسلوب، وقد رأينا التوحيدي يخترع حديث السقيفة ويرى من الفن أن ينطق الصحابة بكلام مسجوع؛ لأنه كان يعرف لغتهم كذلك، فيقول على لسان عمر وهو يخاطب أبا عبيدة:

قل لعليٍّ: الرقاد محلمة، والهوى مقحمة، وما منا إلا له مقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم، وإن أكيس الكيس من منح الشارد تألفًا، وقارب البعيد تلطفًا، ووزن كل شيء بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه ... ما هذه الخنزوانة التي في فراش رأسك؟ ما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك؟ ما هذه القذاة التي تغشت ناظرك؟ وما هذه الوحرة التي أكلت شراسيفك؟ وما هذا الذي لبست بسببه جلد النمر، واشتملت عليه بالشحناء والنكر ... إلخ.١٤

ومن دقة المحاكاة ما رأينا التوحيدي يحرص عليه في حديث السقيفة من التسامح في التزام السجع في بعض الفقرات ليوافق المنهج الذي عرف في نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين.

فإذا تخطينا عصر النبوة وصدر الإسلام إلى العصر الأموي رأينا الخطباء كذلك يسجعون،[١٥] ورأينا مثلًا هشام بن عبد الملك يقول:

وإنا لنعرف الحق إذا نزل، ونكره الإسراف والبخل، وما نعطي تبذيرًا، وما نمنع تقتيرًا، وما نحن إلا خُزَّان الله في بلاده، وأمناؤه على عباده، فإن أذن أعطينا، وإذا منع أبينا، ولو كان كل قائل يصدق، وكل سائل يستحق، ما جبهنا قائلًا، ولا رددنا سائلًا.[١٦]

روي هذا الكلام على أنه مرتجل في الرد على خطيب وفد أهل الحجاز، وفي روايته كذلك دليل على أنهم كانوا يفهمون أن الكلام يقع مسجوعًا حين يحتفل به القائلون.

وقد أُثر عن الخلفاء والقوَّاد كلام مسجوع في مواطن لا ينتظر فيها تأنق في التعبير، كأن يكون الكلام جوابًا على سؤال، من ذلك ما روي أن عقال بن شبة دخل على هاشم وأراد أن يقبِّل يده فقال: «لا يفعل هذا من العرب إلا هَلُوع، ولا من العجم إلا خَضوع.» وقالت امرأة لأبي مسلم: «ناولني يدك أقبِّلها فقد نذرتُ.» فقال: «عليك بالحجر الأسود تصيبين أجرًا، وتقضين نذرًا.»[١٧]

وكان المسيو (Marcais) مرسيه يظن أن الناس بدءوا يكرهون السجع في العصر الأموي، وكانت حجته ما حدَّث الجاحظ أن معاوية أملى كتابًا إلى رجل فقال فيه: «لهو أهون عليَّ من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة.» ثم قال لكاتبه: «امحُ من كِلاب الحرة، واكتب: من الكلاب.» كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع، ورأى أنه ليس في موضعه.[١٨]

وقد راجعنا المسيو مرسيه في هذا وأبنَّا له أن معاوية تحامى السجع في هذا الموطن؛ لأنه فن يشعر بأن الكاتب هادئ النفس، وهو لا يصلح لمقام التهديد والوعيد.

والمعروف عن ابن المقفع أنه لا يلتزم السجع، وبالغ المسيو مرسيه فحدثني في أحد أيام سبتمبر سنة ١٩٢٩ أنه لا يعرفه على الإطلاق، ولو استقصى أخباره لرآه يذكر من البلاغة «ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل»،[١٩] فابن المقفع يقرر

أن السجع فن من القول يقابل الشعر والرسائل، ولعله يريد به الأمثال، وإن كان قرنه بالخطب يفهمنا أنه يقصد به الخطب المسجوعة، ولا سيما إذا لاحظنا أن الحصري يذكر أن بشار بن برد كان «سجاعًا خطيبًا»،[٢٠] وأن المختار بن أبي عبيد كانت له «أسجاع يصنعها، وألفاظ يبتدعها، ويزعم أنها تنزل عليه، وتوحى إليه»،[٢١] وفي هذه العبارة ما يذكر بأن الإلهامات الدينية — حتى المفتراة — كانت تنتظر صورة مسجوعة؛ لأن السجع من تقاليد الكهان، وكان الكهان حملة راية الدين في عصر الجاهلية.

ولو حللنا أساليب المشاهير من كتاب العصر الأموي لرأينا كتاباتهم «موزونة» على طريقة السجع، وإن لم تلتزم فيها القافية، وانظر قول عبد الحميد بن يحيى:

ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك، التي يستخف بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويجد فيها أهل الحسد مقالًا لعيب يرفعونه، ولطعن في حق يجحدونه، ومع ما في ذلك من نقص الرأي، ودرن العرض، وهدم الشرف، وتأثيل الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد، فإذا قدح لاح شرره، ولهب وميضه، ووقد تضرمه، وليست في أحد أقوى سطوةً، وأظهر توقدًا، وأعلى كمونًا، وأسرع إليه بالعيب منها إلى من كان في سنك من أغفال الرجال.[٢٢]

وفي مثل هذا النثر حرية ظاهرة، ولكن بناء الجمل مطبوع بطابع السجع في كثير من الفقرات، ورويت لعبد الحميد أسجاع كقوله: «الناس أخياف مختلفون، وأصناف متباينون، فمنهم علق مضغة لا يباع، ومنهم غل مظنة لا يبتاع.»[٢٣]

وابن المقفع أكثر كُتَّاب العصر الأموي حرية في صوغ الجملة، ولكن يتفق له أحيانًا أن يرصع كلامه على منهج الوزن في السجع، فيقول مثلًا:

وليس كل ذي نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى في ذوي الألباب ... فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف أهلًا فليأخذ له عتاده، وليعد له طول أيامِه، وليؤثره

على أهوائه، فإنه قد رام أمرًا جسيمًا لا يصلح على الغفلة، ولا يدرك بالمعجزة، ولا يصير على الأثرة.

وما نسميه الوزن نريد به فوارق الفواصل الذي يتحصل به هدوء النفَس عند تلاوة الكلام المرصوف.

ومما يعيِّن ميل الأذواق العربية إلى إيثار السجع غلبة هذا الفن على أكثر ما أُثر عن الأعراب. حدَّث الأصمعي أنه سمع أعرابيًّا يذكر قومه فقال:
كانوا إذا اصطفوا تحت القنام، ومطرت بينهم السهام، يشربون الحمام، وإذا تصافحوا بالسيوف، فغرت فاهًا الحتوف.٢٤

وعذلت أعرابية أباها في إتلاف ماله بالجود فقالت:

حبسُ المال أنفع للعيال من بذل الوجه في السؤال، فقد قلَّ النوال، وكثر البخال، وقد أتلفتَ الطارف والتلاد، وبقيتَ تطلب ما في أيدي العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه، أوشك أن يسعى فيما يضره.٢٥

وقال بعض الأعراب:

نالنا وَسْميٌّ،٢٦ وخلفه وليٌّ،٢٧ فالأرض كأنها وشيٌ عبقريٌّ، ثم أتتنا غيوم جراد، بمناجل حداد، فخربت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القوي الأكول بالضعيف المأكول.٢٨

ووعظ أعرابي رجلًا وهو يقول:

ويحك! إن فلانًا وإن ضحك إليك، فإنه يضحك منك، ولئن أظهر الشفقة عليك، فإن عقاربه لتسري إليك؛ فإن لم تتخذه عدوك في علانيتك، فلا تجعله صديقًا في سريرتك.٢٩

ودخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري فقال:

أصلح الله الأمير، شيخ كبير، حدته إليك بارية العظام، ومؤرثة الأسقام، ومطولة الأعوام، فذهبت أمواله، وذعذعت ٣٠ آباله، وتغيرت أحواله، فإن رأى الأمير أن يجبره بفضله وينعشه بسجله، ويرده إلى أهله. ٣١

والسجع في كلام الأعراب كثير جدًّا، فلا نشغل أنفسنا بالتدليل على كثرته، ولنذكر أن هناك أحاديث كثيرة وضعت على ألسنة الأعراب واهتم الوضاعون بصوغها مسجوعة لتسهل نسبتها إليهم، وسنعود إليها عند الكلام عن ابن دريد.

وهناك فن من القول التزم فيه السجع على نمط كلام الأعراب؛ وهو وصايا الآباء للأبناء، وهو فن قديم عرفه أهل الجاهلية، ومن شواهده في العصر الإسلامي قول عبد الله بن شداد:

أي بني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوبًا إليه! وطالب أصبح مطلوبًا ما لديه! ... وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد ... وإن غلبت يومًا على المال، فلا تدع الحيلة على حال؛ فإن الكريم يحتال، والدَّنِيَّ عيال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالًا، أقل ما تكون في الباطن مالًا. ٣٢

وقال علقمة بن لبيد لابنه:

يا بني، إذا نزغتْك إلى صحبة الرجال حاجةٌ فاصحب مَن إن صحبتَه زانك، وإن خدمته صانك، وإن أصابتك خصاصة مانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شهد صولك، وإن مددت يدك بفضل مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتَّ عنه ابتداك، وإن نزلت بك إحدى الملمات آساك، من لا تأتيك

منـه البوائـق، ولا تختلـف عليـك منـه الطرائـق، ولا يخـذلك عنـد الحقـائق، وإن حـاول حويلًا آمَرَك،[٣٣] وإن تنازعتما منفسًا آثرك.[٣٤]

وزعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع كأن الخُطب نوع من القصيد. قال عبد الملك بن مروان وقد دخل عليه العجاج: «يا عجاج، بلغني أنك لا تقدر على الهجاء. فقال يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية، أمكنه إخراب الأخبية.

قال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزًّا يمنعنا من أن نُظلَم؛ وإن لنا حلمًا يمنعنا من أن نَظلِم؛ فعلامَ الهجاء؟ فقال: لَكلماتك أشعر من شعرك، فأنَّى لك عز يمنعك من أن تُظلَم؟ قال: الأدب البارع، والفهم الناصع. قال: فما الحلم الذي يمنعك من أن تظلِم؟ فقال: الأدب المستطرف والطبع التالد.»[٣٥]

وروي أن علي بن أبي طالب أرسل إلى معاوية بالشام كتابًا صحبه صعصعة بن صوحان، فسار به حتى أتى دمشق، فأتى باب معاوية فقال لآذنه: استأذن لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وبالباب جماعة من بني أمية، فأخذته النعال والأيدي لقوله: «أمير المؤمنين»، وكثرت عليه الجلبة، فاتصل ذلك بمعاوية فأذن له، فدخل عليه فقال: السلام عليك يابن أبي سفيان، هذا كتاب أمير المؤمنين. فقال معاوية: أما إنه لو كانت الرسل تُقتل في جاهلية أو إسلام لقتلتك! ثم اعترضه معاوية في الكلام وأراد أن يستخبره ليعرف طبعًا أو تكلفًا، فقال له: ممن الرجل؟ فأجاب: من نزار، قال: وما نزار؟ قال: كان إذا غزا انحوش،[٣٦] وإذا انصرف انكمش، وإذا لقي افترش.

قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من ربيعة. قال: وما ربيعة؟ قال: كان يغزو بالخيل، ويغير بالليل، ويجود بالنيل. قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من أمهر. قال: وما أمهر؟ قال: كان إذا طلب أفضى، وإذا أدرك أرضى، وإذا آب أنضى. قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من جديلة. قال: وما جديلة؟ قال: كان يطيل النجاد، ويعد الجياد، ويجيد الجلاد.[٣٧] قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من دعميٍّ. قال: وما دعميٌّ؟ قال:

كان نارًا ساطعًا، وشرًّا قاطعًا، وخيرًا نافعًا. قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من أفصى. قال: وما أفصى؟ قال: كان ينزل القارات، ويكثر الغارات، ويحمي الجارات.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من عبد القيس. قال: وما عبد القيس؟ قال: أبطال ذادة، جحاجحة سادة، صناديد قادة. قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من أفصى. قال: وما أفصى؟ قال: كانت رماحهم مُشرعة، وقدورهم مترعة، وجفانهم مفرغة.[٣٨] قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من لُكَيْز. قال: وما لُكَيْز؟ قال: كان يباشر القتال، ويعانق الأبطال، ويبدد الأموال.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من عجِل؛ قال: وما عجِل؟ قال: الليوث الضراغمة، الملوك القماقمة، والقروم القشاعمة. قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من كعب. قال: وما كعب؟ قال: كان يسعر الحرب، ويجيد الضرب، ويكشف الكرب. قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من مالك. قال: وما مالك؟ قال: هو الهمام للهمام، والقمقام للقمقام.

فقال معاوية — رحمه الله: ما تركت لهذا الحي من قريش شيئًا! قال: بل تركت لهم أكثره وأحبه! قال: وما تركت لهم؟ قال: تركت لهم الوبر والمدر، والأبيض والأصفر، والصفا والمشعر، والقبة والمفخر، والسرير والمنبر، والملك إلى المحشر.

قال معاوية: أما والله لقد كان يسوءني أن أراك أسيرًا.

فقال صعصعة: وأنا والله لقد كان يسوءني أن أراك أميرًا!

تلك رواية الأمالي، أما رواية صبح الأعشى فقصيرة وتختم هكذا بالسؤال عن عبد القيس: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من عبد القيس. قال: وما كان عبد القيس؟ قال: كان حسنًا أبيض وهابًا، يقدم لضيفه ما وجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق، يقوم للناس مقام الغيث من السماء.[٣٩]

ولنلاحظ أن هذا الحوار يشتمل في سياقه على ثلاث قوافٍ في كل جواب، ويطول في الجواب الأخير؛ لأنه بيت القصيد، ومن الواضح أن هذه الصنعة تعسر على الارتجال، فمن المرجح أن يكون هذا الحوار لَحِقَه شيء من الترتيب، ولا سيما إذا

تذكرنا أنه منسوب إلى خطيب كان يضرب المثل في البيان المطول وهو ابن صوحان، فلا يبعد أن يكون نظمه نظمًا جديدًا بعد خروجه من قصر معاوية بن أبي سفيان.[٤٠]

وهنا أيضًا لا نحتاج إلى كثير من الشواهد؛ لأن السجع في حضرة الخلفاء والأمراء والوزراء كان من الذيوع بحيث لا يحتاج في إثباته إلى تدليل.

ومن طريف ما هدانا إلى الاستقراء أن السجع كان وسيلة من وسائل المجتدين والعفاة، فهو عندهم فن من القول كالقصيد يتقربون به إلى قلوب الأغنياء،[٤١] وتحت أيدينا شواهد بعضها خشن متوعر، وبعضها سهل مقبول، وهي في جملتها تنبئنا بأن السجع كان يزيد الكلام رونقًا وبهاء، وينظم قائله في سلك أهل البيان.

قال صاحب الأمالي: «حدثنا أبو بكر — رحمه الله — قال: أخبرنا أبو حاتم، قال: أخبرنا أبو زيد، قال: بينا أنا في المسجد الحرام إذ وقف علينا أعرابي فقال: يا مسلمون! إن الحمد لله والصلاة على نبيه، إني امرؤ من أهل هذا الملطاط[٤٢] الشرقي المواصي[٤٣] أسياف[٤٤] تهامة، عكفت[٤٥] علينا سنون مُحش[٤٦] فاجتبت[٤٧] الذرى، وهشمت[٤٨] العرى،[٤٩] وجمشت[٥٠] النجم،[٥١] وأعجت[٥٢] البهم، وهمت[٥٣] الشحم، والتحبت اللحم،[٥٤] وأحجنت العظم،[٥٥] وغادرت التراب مورًا،[٥٦] والماء غورًا[٥٧] والناس أوزاعًا،[٥٨] والنبط قعاعًا،[٥٩] والضهل جزاعًا،[٦٠] والمقام جعجاعًا،[٦١] يصحبنا الهاوي،[٦٢] ويطرقنا العاوي،[٦٣] فخرجت لا أتلفع بوصيدة،[٦٤] ولا أتقوت هبيدة،[٦٥] فالبخصات وقعة،[٦٦] والركبات زلعة،[٦٧] والأطراف قفعة،[٦٨] والجسم مسلهمٌّ،[٦٩] والنظر مدرهم،[٧٠] أعشو فأغطش[٧١] وأضحى فأخفش،[٧٢] أُسهل ظالعًا،[٧٣] وأحزن راكعًا،[٧٤] فهل من آمر بمير،[٧٥] أو داع بخير؟ وقاكم الله سطوة القادرة، وملكة الكاهرة،[٧٦] وسوء الموارد، وفضوح المصادر.»[٧٧]

وهذا النوع من الكلام كثير أيضًا، فلا نشغل أنفسنا بإيراد الشواهد، ولنذكر أننا نفترض أن بديع الزمان اقتبس هذا المنهج في مقاماته، فإن صاحبه أبا الفتح

الإسكندري يسأل الناس في المساجد والأسواق على هذا المنوال، وهذه الطريقة في الاستجداء لا تزال معروفة؛ ففي مضايف القرى المصرية وأسواقها يشهد الأغنياء أفواجًا من السائلين يتوسلون إليهم برقًى من الكلام المسجوع، بعضه في المدح وبعضه في الدعاء.

ولنقيد أيضًا أن ما روي في سجع العفاة يرجع إلى بابين: باب تغلب فيه الصنعة حتى لتميل النفس لنسبته إلى صانعي الأخبار والأقاصيص؛ كالكلمة التي نقلناها آنفًا، فإن أغلب الظن أنها من وضع بعض اللغويين.

وباب تغلب عليه الفطرة؛ كالأسجاع التي يفيض بها المعتفون حين تقع بينهم وبين من يسألونهم مراجعة أو ملاحاة، من ذلك ما روي أن أعرابيًّا وقف يسأل فعبث به فتى فقال: ممن أنت؟ فقال الأعرابي: من صعصعة. فقال الفتى: من أيهم؟ فقال: إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا القدر من المعرفة، فليس مقامي مقام مجادلة ولا مفاخرة، وأنا أقول: فإن لم أكن من هاماتهم، فلست من أعجازهم. فقال الفتى: ما رويت من فضيلتك إلا النقص من حسبك. فامتعض الأعرابي لذلك، فجعل الفتى يعتذر ويخلط الهزل والدعابة باعتذاره، وأطال الكلام، فقال له الأعرابي: «يا هذا، إنك منذ اليوم آذيتني بمزحك، وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك، ويحك! إن الجاهل إن مزح أسخط، وإن اعتذر أفرط، وإن حدث أسقط، وإن قدر تسلط، وإن عزم على أمر تورَّط، وإن جلس مجلس الوقار تبسَّط. أعوذ بالله منك، ومن حال اضطرتني إلى مثلك!»[٧٨]

ووقف أعرابي على قوم فمنعوه فقال:
اللهم اشغلنا بذكرك، وأعذنا من سخطك، وأولجنا إلى عفوك، فقد ضنَّ خلقك برزقك، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك، وآتنا من الدنيا القنعان،[٧٩] وإن كان كثيرها يسخطك، فلا خير فيما يسخطك.[٨٠]

وأظرف ما قرأت في سؤال الأعراب هذه الكلمات:

أين الوجوه الصِّباح، والعقول الصحاح، والألسن الفِصاح، والأنساب الصِّراح، والمكارم الرياح، والصدور الفِساح، تعيذني من مقامي هذا.[٨١]

وأصرح من كل ما سلف في إيثار السجع ما قاله عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي وقد سُئل: «لِمَ تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟» فأجاب: «إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلَّ خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذن لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلَّة التفلُّت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عُشْره، ولا ضاع من الموزون عُشْره.»[٨٢]

وهو جواب صريح الدلالة على أن الكلام المسجوع كان ينظر إليه نظرة تقدير وإعجاب، وأنه خليق بأن يحفظ ويروى، وأن الكلام المنثور الخالي من الوزن والقافية يراد به في الأغلب إقناع المخاطبين، أما التفكير في الحاضرين والغائبين فيوجب كلامًا مصنوعًا يستأهل البقاء، وكانت الصنعة أظهر ما تكون في القوافي والأوزان.

وفي هذا الكلام أيضًا دلالة صريحة على أن النثر المرسل لم يحفظ منه إلا قليل، أما النثر المسجوع فحفظ معظمه بفضل الوزن والقافية،[٨٣] والأمر كذلك — فيما نظن — في سائر اللغات؛ لأنه يرجع إلى طبيعة يتساوى فيها جميع الناس.

عرفنا إلى الآن أن السجع كان كثيرًا في الجاهلية، وكان يغلب على النثر في عصر النبوة، ثم أخذ سلطانه يضعف قليلًا في العصر الأموي، وإن حرص عليه القصَّاص والخطباء وناقلوا أحاديث الأعراب، فلنذكر الآن أنه عاد يسترد قوته في أواخر القرن الثاني، وبدأنا نرى رسائل يكاد يلتزم فيها السجع؛ كقول كلثوم بن عمرو العتابي في مخاطبة صديق:[٨٤]

أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه في الجنة — فإنك كنت عند روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها

من النجعة؛ استتمامًا لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وادخارًا لثمرتها، حتي أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف، واشتد علينا كلبها، وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك وأن بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد وأنك تغطي عين الحاسد، والله أعلم أني ما أعدك إلا في حومة الأهل، واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل، ولم يمكنه الكثير لم يعرف جوده، ولم تظهر همته.

والعتابي لا يقف عند السجع، بل يكلف أحيانًا بالبديع، وهو أدخل في الصنعة من السجع، وانظر قوله لمالك بن طوق:

أيها الأمير، إن عشيرتك من أحسن عشرتك، وإن ابن عمك مَن عمَّك خيره، وإن قريبك من قرب منك نفعه، وإن أحب الناس إليك من كان أخفهم ثقلًا عليك.٨٥

فإذا جاء القرن الثالث رأينا السجع يظهر في الكتابة وفي التأليف، ورأينا أبا العيناء مثلًا يؤلف كتابًا في ذم أحمد بن الخصيب، يحكي فيه أن جماعة من الفضلاء اجتمعوا في مجلس وكل منهم يكره ابن الخصيب؛ لما كان فيه من الفدامة والجهالة والتغفل، فتجاذبوا أطراف المُلَح في ذمه، فقال أحدهم — وهنا يبدأ الشاهد: كان جهله غامرًا لعقله، وسفهه قاهرًا لحلمه. وقال آخر: لو كان دابة لتقاعس عن عنانه، وحزن في ميدانه. وقال آخر: كنت إذا وقع لفظه في سمعي أحسست النقصان في عقلي. وقال بعض كُتَّابه: كنت أرى قلم ابن الخصيب يكتب بما لا يصيب، ولو نطق لنطق بنَوك عجيب.٨٦

وأظهر من هذا في إقامة الشاهد قول ابن المعتز يمدح سُرَّ مَن رأى ويصف خرابها ويذم بغداد:

كتبت من بلدة قد أنهض الله سكانها، وأقعد حيطانها، فشاهد اليأس فيها ينطق، وحبل الرجاء فيها يقصر، فكأن عمرانها يطوى وخرابها ينشر، وقد تمزقت بأهلها الديار، فما يجب فيها حق جوار، فما لها تصف للعيون الشكوى، وتشير إلى ذم الدنيا، على أنها وإن جفيت معشوقة السكنى، رجية المثوى، كوكبها يقظان، ووجوها عريان، وحصاؤها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وشرابها مريء، لا كبلدتكم الوسخة السماء، الومدة الماء والهواء، جوها غبار، وأرضها خبار، وماؤها طين، وتوابها سرجين، وحيطانها نزور، وتشرينها تموز، فكم في شمسها من محترق! وفي ظلها من غرق! ضيقة الديار، وسيئة الجوار، أهلها ذئاب، وكلامهم سباب، وسائلهم محروم، ومالهم مكتوم؛ لا يجوز إنفاقه، ولا يحل خناقه. حشوشهم مسابل، وطرقهم مزابل، وحيطانهم أخصاص، وبيوتهم أقفاص، ولكل مكروه أجل، وللبقاع دول، والدهر يسير بالقيم، ويمزج البؤس بالنعيم.[٨٧]

ولابن المعتز من كلمة ثانية يغلب عليها السجع والازدواج:

لا يزال الإخوان يسافرون في المودة حتى يبلغوا المشقة، فإذا بلغوا ألقوا عصا التسيار، واطمأنت بهم الدار، وأقبلت وفود النصائح، وأمنت خبايا الضمائر، فحلوا عقد التحفظ، ونزعوا ملابس التخلق.

وقال من كلمة ثالثة:

سار في جيوش عليهم أردية السيوف، وأقمصة الحديد، وكأن رماحهم قرون الوعول، وكأن دروعهم زبد السيول، على خيل تأكل الأرض بحوافرها، وتمد بالنقع سرادقها، قد نشرت في وجوهها غرر كأنها صحائف الرق، وأمسكها تحجيل كأنه أسورة اللجين، وقرَّطت عذرًا كأنها الشنف، تتلقف الأعداء أوائله، ولم تنهض أواخره، قد صب عليه وقار الصبر، وهبت معهم ريح النصر.[٨٨]

وفي هذا الشواهد الثلاثة لكاتب واحد ما يدل على أن التزام السجع لم يغلب غلبة مطلقة، كما سنرى عند كُتَّاب القرن الرابع، وإنما هي طلائع لهجوم السجع نراها عند كتَّاب القرن الثالث من حين إلى حين، والفنون الأدبية لا تخلق مرة واحدة، أو لا تبعث مرة واحدة، ولكنها في الظهور والانتشار على نحو ما تفعل تباشير الصباح.

ومن أظهر الدلائل على ذيوع بدعة السجع في القرن الثالث ما رأيناه من حرص ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة في كتاب الزهرة، وفي هذا أصدق شاهد على أن السجع عاد فنًّا يُؤْلَف ويستطاب. وإلى القارئ نماذج من تلك العناوين: «من كثرت لحظاته دامت حسراته – العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير – من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه – ليس بلبيب من لم يصف ما به لطبيب – إذا صح الظفر وقمت الغِيَر – التذلل للحبيب من شيم الأديب – من طال سروره قصرت شهوره – من كان ظريفًا فليكن عفيفًا – سوء الظن من شدة الضن – من مُنع من كثير الوصال قنع بقليل النوال – بُعد القلوب على قرب المزار أشد من بُعد الديار من الديار – ما عتب من اغتفر ولا أذنب من اعتذر – إذا ظهر الغدر سهل الهجر – من راعه الفراق ملكه الاشتياق – ما خلق الفراق إلا لتعذيب العشاق – من غاب قرينه كثر حنينه – من قدم هواه قويَ أساه.»

وأرى في هذا الشاهد مقنعًا لمن يتوهمون أن التزام السجع نشأ فجأة في القرن الرابع، ففي هذا الشاهد وحده دليل على أن من الممكن أن نرى كتابًا مسجوعًا لرجل من كُتَّاب القرن الثالث بدون أن يكون في ذلك ما يحملنا على زحزحته إلى حظيرة القرن الرابع، كما فعل بعض الناس.[٨٩]

ولنقيد هنا أن السجع في عناوين فصول الكتاب الذي شرعه ابن داود — وقد يكون سُبِق إليه — هو أصل السجع في عناوين الكتب، وهو فن يجده المطالع في العصور التالية، حتى لنجد عهودًا بأكملها يطَّرد فيها السجع في العناوين، ومن أغرب ما رأيته أن كتاب «من غاب عنه المطرب» للثعالبي، كتب كاتبه على أصله ما نصه:

كان ينبغي للمؤلف — رحمه الله — أن يلحق اسم هذا الكتاب بلفظة؛ وهو أن يقول: كتاب المعرب فيمن غاب عنه المطرب.

وكانت عناوين الرسائل الخاصة توضع أحيانًا مسجوعة، ومن أقربها إلى الفكاهة هذا العنوان: «إلى المخالف الشاق، السيئ الأخلاق، الظاهر النفاق، محمد بن إسحاق».[٩٠]

وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر مع ما أفرطنا في الدعوة إلى ترك السجع؛ فللأمير شكيب أرسلان كتاب حديث جدًّا نشره أولًا في جريدة الشورى واسمه: «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف».[٩١]

وقد حذا حذو ابن داود في سجع فصول الكتاب مؤلف آخر عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وعاش صدرًا من القرن الرابع؛ وهو محمد بن أحمد بن إسحاق المعروف بالوشَّاء، وإلى القارئ نماذج من سجعه في عناوين الفصول: باب النهي عن ممازحة الأخلاء والنهي عن مفاكهة الأودَّاء – باب الحث على صحبة الإخوان والإغراء على مودَّة الخلان والرغبة في أهل الصلاح والإيمان – باب ما جاء في قبح خلف المواعيد وما يلحق صاحبه من اللوم والتفنيد – باب الحث على كتمان السر والترغيب في حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر – باب ما سئل عنه أهل الصدق من تمام خلات العشق – باب صفة ذم القيان ونفوذ حيلتهن في الفتيان – باب زي الظراف في التكك والنعال والخفاف – باب زيهم المخصوص في الخواتيم والفصوص.[٩٢]

والقارئ يرى هذا السجع في العناوين أقل جودة من سجع ابن داود.

وأهم من هذا وأدل على الغرض ما رأينا من إيثار هذا المؤلف للسجع في كثير من مواد كتاب «الموشي»، وفي هذا دليل واضح على أن السجع دخل في لغة التأليف عند كتاب القرن الثالث. وانظر قوله في وصف الأديب:

فحقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه، ولا يرسله في غير حقه، وأن ينطق بعلم، وينصت بحلم، ولا يعجل في الجواب، ولا يهجم على الخطاب، وإن رأى أحدًا هو أعلم منه، نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والغلط، ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم يناظر فيما لا يفهم، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الانقطاع والاضطراب، وكان فيه نقصه عند ذوي الألباب.[٩٣]

وحدثنا هذا المؤلف عما كان ينقش على الخواتم والفصوص فرأيناه أسجاعًا في أسجاع!

فمما كان ينقشه أهل الحزم على خواتيمهم: «القناعة خير من الضراعة – التقلل خير من التذلل – السلامة خير من الندامة – بادر الفرصة قبل أن تكون الغصة – الهرب قبل الطلب – الفرار قبل الحصار – الرجوع قبل الوقوع».[٩٤]

ومما كان ينقشه أهل الهوى على الفصوص: «الحين خير من البين – القبر أفسح من الهجر – الموت خير من الفوت – كأس الهجر أَمَرُّ من الصبر – طول الجفاء يكدر الصفاء – آفة الحبيب نظر الرقيب – الهوى ثوب الضنى – ذهب الفراق بحيلة العشاق».[٩٥]

فهذا «الجو» من الكلف بالسجع في الرسائل والمؤلفات وأحاديث الناس كان تمهيدًا لما سنراه من التزام السجع في القرن الرابع، ولا ننسى أن أكثر ما كان يكتب في الغزل والوصف والهجاء وقع في الأكثر مسجوعًا، كأن السجع هو الفن الملائم للموضوعات التي كانت في الأصل مما يتحدث عنه الشعراء، والسجع فيه خواص من الشعر، أظهرُها الوزن والتقفية، وإن كان يحتاج إلى رياضة نفسية تبعد بعض البعد عن الرياضة التي يوجبها القريض.

ولا ينبغي أن نستبعد — كما استبعد الأستاذ أحمد أمين — أن توجد مؤلفات مسجوعة في القرن الثالث، فإن عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار، ويراه ضربًا من التكلف الممقوت، ومع هذا وجدت في عصرنا مؤلفات

مسجوعة؛ مثل «صهاريج اللؤلؤ» و«حديث عيسى بن هشام» وأبواب من «ليالي سطيح»، ولا يزال عندنا كُتَّاب مطبوعون على السجع، لا يتحامونه إلى كارهين، ليسايروا الذوق الحديث.

ومن هذا يتبين أن الصبغة الفنية التي تغلب في بعض العصور لا تسود سيادة مطلقة، وإنما تعيش بجانبها مذاهب تناقضها بعض المناقضة، وترفع رأسها في غير خوف ولا إشفاق، ولولا ما صنعت الصحافة في رياضة الكتَّاب المعاصرين على تجنب السجع والطباق والجناس لبقيت من البديع فنون تسيطر على أكثر الكتَّاب.

ولنأخذ في محاولة أخرى جزيلة النفع؛ وهي درس آراء علماء البيان الذين تكلموا في السجع، ففي كلامهم تحديد لأهمية السجع في البلاغة العربية، ولنبدأ بالجاحظ؛ وهو كاتب لا يسجع إلا قليلًا، ولكنه يرى السجع من خصائص لغة العرب، وانظر قوله في الرد على الشعوبية:
ونحن — أبقاك الله — إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج،[٩٦] فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والنبذ القليل.[٩٧]

ونراه يخص الأسجاع بأبواب من كتابه «البيان والتبيين»، فيتخير من بدائعها فرائد بعضها تليد وبعضها طريف، فيقول: قال عمر بن ذر: «والله المستعان على ألسنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخلف.» ولما مدح عتيبة بن مرداس عبد الله بن عباس قال: «لا أعطي من يعصي الرحمن، ويطيع الشيطان، ويقول البهتان.» وفي الحديث المأثور: «يقول العبد: مالي! وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت.» ووصف أعرابي رجلًا فقال: «صغير القدر، قصير الشبر، ضيق الصدر، لئيم النجر،[٩٨] عظيم الكبر، كثير الفخر.»

وسأل بعض الأمراء رسولًا قدم من جهة السند: كيف رأيتم البلاد؟ فقال: «ماؤها وشل، ولصها بطل، وتمرها دقل،[٩٩] إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا.» ونظر رجل من العُبَّاد إلى بعض الملوك فقال: «باب جديد، وموت عتيد، ونزع شديد، وسفر بعيد.» وقيل لبعض العرب: أي شيء تَمنى وأي شيء أحب إليك؟ فقال: «لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير!» وقيل لآخر — وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان أُمر بقتله: أجزعت من الموت؟ فقال: «إن أجزع فقد أرى كفنًا منشورًا، وسيفًا مشهورًا، وقبرًا محفورًا.»[١٠٠]

وعقد الجاحظ فصلًا آخر للأسجاع جاء فيه:

ومن الأسجاع قول أيوب بن القِرِّيَّة، وقد كان دُعي للكلام فحبس عليه القول: «قد طال السمر، وسقط القمر، واشتد المطر، فماذا ينتظر؟» فأجابه فتى من عبد القيس: «قد طال الأرق، وسقط الشفق، وكثر اللثق،[١٠١] فلينطق من نطق.[١٠٢]

ولم يقف الجاحظ عند رواية الجيد من الأسجاع؛ بل أضاف إلى ذلك الدفاع عنها ومناقشة من كرهوها، فحدَّث أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل: فقد قيل للذي قال: «يا رسول الله، أرأيت من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس مثل ذلك يُطل؟» فقال رسول الله: «أسجعٌ كسجع الجاهلية؟» فقال عبد الصمد: لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا إقامة الوزن لما كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالًا لحق فتشادق في كلامه.[١٠٣]

وقال غير عبد الصمد: وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله ﷺ واستحسنه وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله قد قالوا شعرًا، قليلًا كان ذلك أم كثيرًا، وسمعوا واستشهدوا، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل؟[١٠٤]

قال الجاحظ: وكأن الذي كره الأسجاع بعينها — وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة — أن كهان العرب الذين كان أكثرُ الجاهلية يتحاكمون إليهم ويدعون الكهانة، وأن مع كل واحد منهم رِئِيًّا من الجن مثل: (حاذي جهينة)، ومثل: (شق)

و(سطيح) و(عزى سلمة) وأشباههم، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع، كقوله: «والأرض والسماء والعقاب والصقعاء،[١٠٥] واقعة ببقعاء،[١٠٦] لقد نفر المجد بني العشراء، للمجد والسناء.» وهذا الباب كثير.

ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار، قالوا: فوقع النهي عن ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم.[١٠٧]

ثم قال الجاحظ: وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحدًا، وكان الفضل بن عيسى الرقاشي سجَّاعًا في قصصه، وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبي عياش يأتون مجلسه.[١٠٨]

ونستخلص من كلام الجاحظ ثلاث حقائق:

- **الأولى:** أن السجع عنصر كريم في بلاغة العرب.
- **الثانية:** أن ناسًا من أهل القرن الأول والثاني كرهوا السجع؛ لأنه كان يذكر بأساليب الكهان.
- **الثالثة:** أن جمهور الخطباء والقصاص والوعاظ كان يسجع، وأن الخلفاء لم ينكروا على أحد أن يتكلم بين أيديهم بكلام مسجوع.

ومن الواضح أن شبهة من كرهوا السجع ساقطة؛ لأن القرآن سجع، وما نظن الرسول تجنَّب أساليب الكهان، فإن الكهان لم يخلقوا السجع، وإنما كان حلية قديمة في اللغة العربية، وكانت قوية الصلاحية لمن يخاطب القلوب، وكذلك انتفع به القسيسون والكهان في الجاهلية، وقبلها القرآن، وآثرها النبي وأصحابه، وظلت أثيرة لدى خطباء المساجد إلى اليوم، وهي في الواقع أساس البلاغة عند رجال الدين.

ومن الباحثين الذين فصلوا في مسألة السجع الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة»،[١٠٩] وقد تكلم عن السجع في غير موضع، وحدثنا «أن السجع الواقع

موقعه كثير لمن طلبه»،[١١٠] ونقل نموذجًا من سجع الأحنف بن قيس، وخطَّأ الرماني في قوله: «إن السجع عيب، والفواصل بلاغة على الإطلاق.» لأن الرماني إن أراد بالسجع ما يكون تابعًا للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلَّف فذلك عيب، والفواصل مثله، وكما يعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف، كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف، وقال:

أظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعًا رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم، فأما الحقيقة فما ذكرناه؛ لأنه لا فرق بين مشاركة القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعًا، وبين مشاركة جميعه في كونه عرضًا وصوتًا وحروفًا وكلامًا وعربيًّا ومؤلفًا ... ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع، فإن قال قائل: إذا كان عندكم أن السجع محمود فهلا ورد القرآن كله مسجوعًا؟ وما الوجه في ورود بعضه مسجوعًا وبعضه غير مسجوع؟ قيل: إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعًا لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع، سيما فيما يطول من الكلام، فلم يرد مسجوعًا جريًا على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم.[١١١]

وأشار الخفاجي إلى جماعة من زعماء الكُتَّاب في القرن الثاني والثالث فبيَّن أن السجع فيما وقف عليه من كلامهم قليل، «لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع إلا في اليسير من المواضع.»

ومعنى هذا أن الذين لم يلتزموا السجع من كُتَّاب القرن الثاني والثالث كانوا يحرصون على ألوان من الفن في كتاباتهم، وتلك الألوان الفنية ظاهرة كل الظهور لمن يقرأ آثار أولئك الكتاب.

ولنضِف إلى ما أسلفناه من رأي الخفاجي أنه كان يميل إلى إيثار السجع حين يوجبه المعنى والغرض، فإنه يكره أن تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد؛ «لأن في ذلك تعرضًا للتكرار، وميلًا إلى التكلف».[١١٢]

ولنوجه نظر القارئ إلى حقيقتين في كلام الخفاجي:

- **أولاهما:** حكمه بأن القرآن «أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم»، فإن لهذه الحقيقة عندنا أهمية خاصة؛ إذ كانت تؤيد رأينا في أن القرآن من جنس كلام العرب وعلى أساليبهم، ولا يمتاز إلا بقوة المعنى وقوة الروح.
- **وثانيتهما:** حكمه بأن الفصيح من كلام العرب لا يكون كله مسجوعًا لما في ذلك من أمارات التكلف، فقد رأينا شواهد ذلك في كلام الرسول، وخطب الصحابة والخلفاء والقوَّاد والوزراء، وأكثر ما رأيناه ينخرط في سلك قول قطريٍّ بن الفجاءة في وصف الدنيا:

من أقلَّ منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، ويطيل حزنه، ويبكي عينه، كم واثقٍ بها قد فجعته، وذي حلم تنبه إليها قد صرعته، وذي احتيال فيها قد خدعته، وكم ذي أبهة فيها قد صيرته حقيرًا، وذي نخوة قد ردته ذليلًا، وذي تاج قد كبته لليدين والفم! سلطانها دول، وعيشتها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام، وقطافها سلع، حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اهتضام، ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجارها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات للموت، وهو المطَّلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل.[١١٣]

وقول خطيب من آل صوحان يعارض عبد الملك وقد أغلظ القول:

مهلًا مهلًا يا بني مروان! تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون! أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم: اقتدوا بسيرتنا. فأنَّى وكيف؟ وما الحجة وما المصير إلى الله؟ أنقتدي بسيرة الظلمة الفسقة

الجورة الخونة، الذين اتخذوا مال الله دولًا، وعبيده خولًا؟ وإن قلتم: اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا. فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلامَ ولَّيناكم أمرنا، وحكَّمناكم في دمائنا وأموالنا؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات، وأفصح بالعظات؟ فتخلوا عنها، وأطلقوا عقالها، وخلوا سبيلها، ينتدب إليها آل رسول الله ﷺ الذين شردتموهم في البلاد، ومزقتموهم في كل واد، بل تثبت في أيديكم لانقضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة، إن لكل قائم قدرًا لا يعدوه، ويومًا لا يخطوه، وكتابًا بعده يتلوه.

ففي هذا الشاهد والذي قبله سجع مقبول جدًّا، ولكنه لا يلتزم، وإنما يرد من فقرة إلى فقرة بلا قلق ولا التواء، وقد يكون الشاهد الثاني من وضع بعض العلويين؛ لأن راويه يذكر أن الخطيب «التُمس فلم يوجد»، ومن العسير أن يحفظ كلام ألقاه صاحبه في فورة غضب وفي مقارعة ملك ثم لاذ بالفرار، ولكن القارئ مرجو أن يتذكر ما أسلفناه من قبل من أن الرواة كانوا حين يضعون كلامًا يجتهدون في محاكاة لغة العصور التي ينسبون إليها ما يضعون من خطب وأحاديث.[١١٤]

وممن دافعوا عن السجع أبو هلال العسكري في كتاب «الصناعتين»، ويمتاز أبو هلال في كتابه بالحرص على رد أصول المحسنات البديعية إلى القرآن، ومن أمثلة ذلك ما رواه من الشواهد في باب (التجنيس) من مثل: وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ – فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ – تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ – وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ – وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ – ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ،[١١٥] وعرض أبو هلال للشاهد الذي عرض له الرقاشي فيما نقل الجاحظ، ووقف عند قوله عليه السلام: «أسجعًا كسجع الكهان؟!» وعلل الاستنكار بما عرف في سجع الكهان من التكلف، ثم قال: «ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعًا لقال: أسجعًا؟ ثم سكت، وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه؟[١١٦]

ويحدثنا أبو هلال أن النبي كان ربما غيَّر الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتْباع الكلمة أخواتها؛ كقوله: «أعيذه من الهامة والسامة، وكل عين لامة.» وإنما أراد: ملمة، وقوله عليه السلام: «ارجعن مأزورات، غير مأجورات.» وإنما أراد: موزورات من الوزر، فقال (مأزورات) لمكان (مأجورات) قصدًا للتوازن وصحة التسجيع.١١٧

وشدد أبو هلال في الحرص على الازدواج، وهو فن ظاهر في كلام من لا يلتزمون السجع من أقطاب القرن الأول والثاني والثالث، ومن أمثلة الازدواج قول بعضهم:

أصبر على حر اللقاء، ومضض النزال، وشدة المصاع،١١٨ ومداومة المراس.

فلو قال: «على حر الحرب، ومضض المنازلة» لبطل رونق التوازن.١١٩

وقد يتفق السجع والازدواج مثل:

حتى صار تعريضك تصريحًا، وتمريضك تصحيحًا.

فالتعريض والتمريض سجع، والتصريح والتصحيح سجع آخر؛ فهو سجع في سجع.

قال أبو هلال: وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع.١٢٠

ويحدثنا أبو هلال أن العرب فتنوا بالسجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم، وصار ذلك الجنس من الكلام منظومًا في منظوم وسجعًا في سجع، وهذا النوع من الشعر اسمه «المرصَّع»، ومن أمثلته:

فتور القيام قطيع الكلا م يفتر عن ذي غروب خصر

وقول كعب بن زهير:

هيفاء مقبلةً عجزاء مدبرةً

وقول أوس:

جُشًّا حناجرها عُلمًا مشافرها

وقول النمر:

من صَوْب سارية عُلَّت بغادية

وقال تأبط شرًّا:

حمَّال ألوية شهَّاد أندية هبَّاط أودية جوَّاب آفاق

وقول الأفوه الأزدي:

سود غدائرها بُلج محاجرها

وقول عامر بن الطفيل:

ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وقد ارتقى أبو هلال بالترصيع إلى العصر الجاهلي وصدر الإسلام، فدلنا على أنه فن قديم انتُزع من النثر وأضيف إلى الشعر رغبة في وفرة الأنغام والألحان.

ومن أظهر من اهتموا بالكلام عن السجع صاحب «المثل السائر»، وهو يمتاز عمن سبقوه إلى الدفاع عن السجع بأنه عاش في عصر كان أهله جميعًا يسجعون،[١٢١] وهو يتهم خصوم السجع بالعجز عن أن يأتوا به «وإلا فلو كان مذمومًا لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرها، وبالجملة فلم تخلُ منه سورة من السور»،[١٢٢] ثم سرد أمثلة من الآيات المسجوعة، وانتقل إلى الحديث فذكر شواهد من سجع الرسول، ثم تحدث عن نهي النبي عن سجع الكهان بمثل ما تحدث به صاحب الصناعتين، ثم قال:

واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد؛ إذ لو كان ذلك هو المراد

من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجَّاعًا، وما من أحد منهم ولو شدا شيئًا يسيرًا من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظًا مسجوعة ويأتي بها في كلام، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة، لا غثَّة ولا باردة، وأعني بقولي: غثة وباردة، أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابًا من الكرسف أو ينظم عقدًا من الخزف الملون، وهذا مقام تزل عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلًا. فإذا صفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوبًا آخر؛ وهو أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه عند باطن مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب.[١٢٣]

وقد افترض ابن الأثير أن يقال: إذا كان السجع أعلى درجات الكلام فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعًا، وليس الأمر كذلك، بل منه المسجوع وغير المسجوع.

وقال في الجواب: «إن أكثر القرآن مسجوع، حتى إن السورة لتأتي كلها مسجوعة، وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعًا إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لا يؤاتى في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب.»

ثم قال: «وها هنا وجه آخر هو أقوى من الأول، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع؛ لأن ورود غير المسجوع معجزًا أبلغ في باب الإعجاز.»[١٢٤]

ومعنى هذا أن السجع بعض أسرار الإعجاز عند ابن الأثير.

وحدثنا في مكان آخر أنه تصفح القرآن فوجده «لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة»،[١٢٥] والواقع أن الموازنة كثيرة في القرآن، مثل: وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فالمستبين والمستقيم على وزن واحد. وكذلك قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام: وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا، فالعزُّ والضدُّ على وزن واحد، والأزُّ والعدُّ على وزن واحد.

وكلام ابن الأثير يؤيد ما انتهينا إليه في أثناء هذا الفصل من أن بناء الجملة لم يخرج في جوهره عن السجع طوال القرن الثاني والثالث، والقرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين «عصر الجاحظ» وينفي عنه السجع، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الازدواج، ومن كلامه في وصف إفك الحاسد:
وإن كان المحسود عالمًا قال: مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل، وتابع نيل، لايدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، وقد أقبل وجوه الناس إليه، وما أحمقهم إذ مالوا عليه، فقبَّحه الله من عالم ما أعظم بليته، وأقل رعيته، وأسوأ طعمته. وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنِّع يغزو ليوصى إليه، ويحج ليثنى عليه، ويقرأ في المسجد ليزوِّجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته.[١٢٦]

وانظر قوله في مقدمة الجزء الثاني من البيان والتبيين:
ولكننا أحببنا أن نصدِّر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجلة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض، وحلي الدنيا، والنجوم لا يضل معها الساري، والمنار الذي يرجع إليه الباغي، والحزب الذي كثَّر الله به القليل، وأعز به الذليل، وزاد الكثير في عدده، والعزيز في ارتفاع قدره، وهم الذين جلَوا بكلامهم الأبصار العليلة، وشحذوا بمنطقهم

الأذهان الكليلة، فنبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها من سوء عادتها، وشفوها من داء القسوة، وغباوة الغفلة، وداووا من العي الفاضح ونهجوا الطريق الواضح ... إلخ.

وهذا يدلنا على أن الجاحظ لا يهمل السجع إلا حين يسوقه اطراد القول في لغة التأليف، ولكنه حين يحتفل بالكتابة يسجع ويزاوج، كأن لغة النثر الفني تنتظر مِلاكًا من السجع والازدواج.[١٢٧]

وقدامة[١٢٨] بن جعفر — من كُتَّاب القرن الرابع — يرى السجع من أوصاف البلاغة، على شرط أن يكون في موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه، «فإن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه، فأما أن يلزمه الأنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهلٌ من فاعله، وعيٌّ من قائله».

وتحدث قدامة عما كره الرسول من السجع بمثل ما تحدث الجاحظ وأبو هلال وابن الأثير، ثم قال: وإنما أنكر ﷺ ذلك؛ لأنه أتى بكلامه مسجوعًا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان، وأما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافي مختلفة متكلفة، ولا متمحلة مستكرهة، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه، فهو غير منكر ولا مكروه، بل قد أتى في الحديث: «ويقول العبد: مالي مالي، وماله من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأمضى.»

ثم عرض لأهل عصره؛ وهم رجال القرن الرابع، فقال: ومما تكلم به أهل العصر فأُتي بالسجع فيه محمودًا، ومن الاستكراه بعيدًا، قوله: «والحمد لله الذي ذخر المنة لك، وأخَّرها حتى كانت منك، فلم يسبقك أحد إلى الإحسان إليَّ، ولم يحاضِّك أحد في الإنعام عليَّ، ولم تتقسم الأيادي شكري فهو لك عتيد، ولم تخلق المنن وجهي فهو لك مصون جديد، ولم يزل ذمامي مضاعًا حتى رعيته، وحقي مبخوسًا حتى قضيته، ورفعت من ناظري بعد انخفاضه، وبسطت من أملي بعد انقباضه، فليس أعتد يدًا إلا لك، ولا منة إلا منك، ولا أوجِّه رغبتي إلا إليك، ولا أتكل في أمري بعد الله إلا عليك، فصانك الله عن شكر من سواه، كما صنتني عن شكر من سواك.»

ثم قال: ومما يباين هذا مما وضع في غير موضعه قول صديق لنا في فصل من رقعة له: «ورزقني عدلك، وصرف عني خذلك.» وقوله أيضًا: «ولقد جلَّت عندي بابن فلان المصيبة، وعظمت الشعيبة.» وقول آخر في صدر رقعة: «أطال الله بقاءك لي خصيصًا، ولأودائك فيصوصًا. إلى أن قال: ولو كان لزوم السجع في القول والإغراب فيه وفي اللفظ هما البلاغة لكان الله — عز وجل — أولى باستعمالهما في كلامه الذي هو أفضل الكلام، ولكان النبي ﷺ والأئمة المهديون قد استعملوهما ولزموا سبيلهما وسلكوا طريقهما، فأما ولسنا واجدين فيما في أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا في المواضع اليسيرة فهم أولى بأن يُقتدى بهم، ويحتذى بمناهجهم ممن قد نبت في هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها، ولا من الخطابة إلا التحلي باسمها.[١٢٩]

وقد لاحظنا أن الكُتَّاب كانوا يسجعون ويزاوجون حين يترجمون، لأن الترجمة القوية لونٌ من الإنشاء توجب ما يوجبه الكلام المبتكر من قوة الوصف، والتأنق في الصوغ، وقد حدثوا أنه قيل لبزرجمهر: أي الاكتساب أفضل؟ فقال: «العلم والأدب كنزان لا ينفدان، وسراجان لا يطفآن، وحلتان لا تبليان، من نالهما أصاب الرشاد، وعرف طريق المعاد، وعاش رفيعًا بين العباد.»[١٣٠] وقيل لكسرى: أي الملوك أفضل؟ فأجاب: «الذي إذا حاورته وجدته عليمًا، وإذا خبرته وجدته حكيمًا، وإذا غضب كان حليمًا، وإذا ظفر كان كريمًا، وإذا استُمْنح منح جسيمًا، وإذا وعد وفَّى وإن كان الوعد عظيمًا، وإذا شُكي إليه وجد رحيمًا.»[١٣١]

فهذه فِقَر نقلت عن الفارسية وروعي فيها السجع، وسنرى في الجزء الثاني من هذا الكتاب فقرات منقولة عن اليونانية وروعي فيها السجع، ونقلت صحائف من لغات أخرى وروعي فيها السجع، من ذلك ما حدَّث ابن قتيبة بسنده أن يوسف — عليه السلام — لما لبث في السجن سبع سنين أرسل الله — عز وجل — إليه جبريل — عليه السلام — بالبشارة بخروجه فقال له: أتعرفني أيها الصديق؟ قال له يوسف: أي صورة طاهرة وروحًا طيبًا لا يشبه أرواح الخاطئين. قال جبريل: أنا الروح الأمين، ورسول رب العالمين. قال يوسف: فما أدخلك مداخل المذنبين، وأنت سيد المرسلين،

ورأس المقربين؟ قال جبريل: أوَلم تعلم أيها الصديق أن الله يطهر البيوت بطهر النبيين، وأن البقعة التي يحلون بها هي أطهر الأرضين، وأنه قد طهَّر بك السجن وما حوله يابن الطاهرين! قال يوسف: كيف تشبهني بالصالحين وتسميني بأسماء الصدِّيقين، وتعدُّني مع آبائي المخلصين، وأنا أسيرٌ بين هؤلاء المجرمين؟ قال جبريل: لم يكْلم قلبك الجزع، ولم يغيِّر خلقك البلاء، ولم يتعاظمك السجن، ولم تطأ فراش سيدك، ولم ينسِكَ بلاء الدنيا بلاء الآخرة، ولم تنسِكَ نفسك أباك، ولا أبوك ربك، وهذا الزمان الذي يفك الله به عنوَّك، ويعتق به رقَّك، ويبين للناس فيه حكمتك، ويصدق رؤياك وينصفك ممن ظلمك، ويجمع إليك أحبتك.»١٣٢

ولسنا نريد أن نثبت أن كل ما ترجم روعي فيه السجع والازدواج، لا، ولكنا نقول: إن فريقًا من المترجمين جرى على الطبع المكتسب بطول الألفة في مذاهب الإنشاء، فسجع وزاوج فيما نقل إلى العربية من اللغات الأجنبية، وفي هذا تأييد لما حاولنا إثباته في هذا الفصل من غلبة السجع والازدواج على سواد المنشئين.

أما بعد، فقد أسهبنا في هذا الفصل إسهابًا نخشى أن ينتهي إلى الإملال، ولكنه فصلٌ ضروريٌ جدًّا في بناء هذا الكتاب، ذلك بأن السجْعَ صار خصيصة عند كُتَّاب القرن الرابع، ومن الناس من ظن أنه كان كذلك؛ لأن كُتَّاب ذلك العهد أسرفوا في انتهاب المحسنات اللفظية من اللغة الفارسية، فأردنا أن نثبت أن السجع كان حلية أصلية في اللغة العربية، وأنه أخذ أطوارًا مختلفة حتى وصل إلى القرن الرابع.

وسنرى بعد قليل أن السر في إقبال كُتَّاب القرن الرابع على السجع يرجع إلى حرصهم على انتهاب طرائق الشعراء في المعاني والأساليب.

ونعيذ القارئ أن يتوهم أننا كتبنا هذا الفصل للدعوة إلى إيثار السجع، لا، فنحن نرى السجع قيدًا يعطل حركة الفكر والعقل في كثير من الأحيان، ونراه يبعد لغة العرب من أن تصير لغةً مدنية تعبر عن جميع الشئون في طلاقة وحرية؛ بحيث لا يصدها سجع، ولا يحدها ازدواج. وسيرى المتأمل حين يجاوز القرن الرابع — الذي سلم فيه السجع من آثار التكلف الممقوت — أن لغة الرسائل والتأليف وقعت تحت نِيرٍ من

السجع ثقيل، حتى وجدنا السجع يلتزم في موضوعات بعيدة عن الأدب، وكان الأدب هو الذي يوحي بالتأنق والافتتان.

وإذا كان كُتَّاب العصر الحاضر قد انصرفوا انصرافًا تامًّا عن السجع، فإن ذلك منشؤه أنهم ملُّوا هذا الزخرف، وضجروا منه، ورأوه علامة على فقر الكاتب وعجزه عن الظفر بالحلية الجوهرية؛ حلية المعنى الرائع والغرض النبيل.

ولا ينسَ القارئ أننا نؤدي في هذه الدراسة مهمة المؤرخ، فليس من شأننا أن نقبِّح أو نحسن فنًّا من طرائق البيان، وإنما نرسم العهود الأدبية رسمًا واضحًا قد يظهر عليه التشيع في بعض الأحيان، وما بنا أن نتشيع، ولكن الحرص على إتقان الصورة التاريخية قد يظهرنا متشيعين من حيث لا نريد.

ونحن في العصر نهرب من السجع والمزاوجة عامدين، حتى في المواطن التي يفرض فيها المعنى أن نسجع أو نزاوج، وليس خطؤنا في هذا بأقل من خطأ من يجنون على المعنى بالتزام السجع، ولكل عصر آفته؛ فالتأنق الُمغرِب آفة، والتحرر المسرف آفة، والصواب أن تكون السيادة للمعنى، وأن يكون له السلطان المطلق في فرض ما توجبه الألوان النفسية من مختلف الصور والأساليب.١٣٣